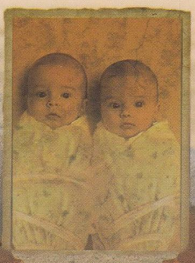
الإمانة العامة
العتبة الحسينية المقدسة
موسسة الفاطمية للتعليم
١٧٠٢

رواية

طريق لا يخلو منك

سناء قاسم المرجي

الرواية الفائزة بـ (جائزة الرواية العربية/ الدورة الأولى)



الإشراف العلمي
اللجنة العلمية في مؤسسة الفتى الفرقد
الإصدار ٤٩

طريقٌ لا يَخلو مِنك

رواية



رواية

طريقٌ لا يَخلو مِنك

سناء المرجي

بطاقة الفهرسة

PJ7946.A75 T3 2025

المرجي، سناء، ١٩٧٣- - مؤلف.

رواية طريق لا يخلو منك / سناء المرجي. - الطبعة الاولى. - النجف، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة الخلق العظيم، ٢٠٢٥ / ١٤٤٧ للهجرة.

١٨٠ صفحة ؛ ٢٤ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ١٧٠٢)، (مؤسسة الخلق العظيم ؛).

١. القصص العربية -- القرن ٢١. ٢. القصص الاخلاقية. أ. العنوان.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق
ببغداد (٤٩١١) لسنة (٢٠٢٥)

هوية الكتاب

طريق لا يخلوا منك

المؤلف: سناء المرجي.

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع: ٢٠٢٥م

دار الطبع: مطبعة دار الوارث.

إشراف ومراجعة: اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم.

الناشر: العتبة الحسينية المقدسة .

تقويم النص و التدقيق اللغوي : مؤسسة الخلق العظيم .

المخرج الطباعي: السيد مرتضى حسين الهاشمي.

تصميم الغلاف: مرتضى ماجد الدالي .

اللجنة العلمية

الشيخ صباح الساعدي

د. السيد زيد البطاط

د. حاتم البخاتي

الشيخ غانم الجبوري

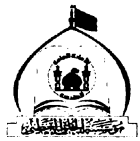




جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَة
لِلعَتَبَةِ الحُسَينِيَّةِ المُقَدَّسَة

الطبعة الأُولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م



إصدار

مؤسسة الخلود العظيم

كلمة المؤسسة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته الزاكيات على نبيه الكريم الموصوف بالخلق العظيم، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فبما أنّ للأدب بالغ الأثر في نفوس مخاطبيه، وأن عشاقه الذين انبهروا بهذا اللون من الكتابة هم من مختلف الفئات والأعمار والمستويات، فقد رأت مؤسسة الخلق العظيم للدراسات الأخلاقية ـ وفي صدد اتباع السبل المؤثرة لنشر القيم الأخلاقية وترسيخها في المجتمع العربي ـ أن من اللازم توظيف هذا النمط المؤثر من الكتابة، فتبلور عن ذلك مشروع الأدب الأخلاقي والذي يعمل في المجالين التاليين:

الأول: الشعر؛ حيث عمدت المؤسسة إلى توظيف الأشعار الهادفة ذات المضامين الأخلاقيّة المؤثرة، وذلك عن طريقين؛ هما:

أ) إعداد موسوعة ألفبائيّة للأشعار الأخلاقيّة، حيث تبوّب الأشعار ـ وفق العناوين الأخلاقيّة المتضمنة فيها ـ في ترتيب ألفبائي، لتكون رافداً مهمّاً للباحثين والخطباء وهواة الشعر والأدب.

ب) كتابة الشعر الأخلاقي في الأحداث المعاصرة؛ فتتم دعوة الشعراء والأدباء واستكتابهم لتسليط الضوء على الفضائل الخُلقيّة

والظواهر الاجتماعيّة الإيجابيّة بغية دعمها وترويجها، ونقد الظواهر الاجتماعيّة والأخلاقية السلبيّة ومواجهتها.

الثاني: الرواية السردية؛ ويتمّ العمل فيه على تأليف روايات ذات مضامين أخلاقية يكون المستهدف فيها فئات الأطفال والناشئة والشباب، من خلال صياغة المفاهيم الأخلاقيّة، أو كتابة القصص الأخلاقية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام والعلماء والعظماء، بأسلوب روائي معاصر متناسب مع الفئات المستهدفة.

وفي ضوء ذلك فقد أُطلقت مسابقة الرواية العربية والتي تهدف إلى دعم المشهد الثقافي والأدبي في الساحة العربية، ليتحقق من خلال ذلك نشر القيم والمبادئ الأخلاقية النبيلة، وقد لاقت إقبالا واسعا من قبل الأدباء المحترمين في العراق والوطن العربي، وشارك في نسختها الأولى من مختلف البلدان العربية، إذ استقبلت المؤسسة مشاركات واسعة من خمسة عشر بلد عربي، وبالتسلسل التالي:

١. مصر العربية: ١٠٦ مائة وستة رواية.
٢. العراق: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.
٣. الجزائر: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.
٤. المغرب العربي: ٢٨ ثمانية وعشرون رواية.
٥. سوريا: ١٣ ثلاثة عشر رواية.
٦. تونس: ١٠ عشرة روايات.
٧. اليمن: ٩ تسع روايات.

٨. لبنان: ٥ خمس روايات

٩. السودان: ٣ ثلاث روايات.

١٠. البحرين: ٣ ثلاث روايات.

١١. ليبيا: ٢ روايتان.

١٢. الأردن: ٢ روايتان.

١٣. الكويت: ١ رواية واحدة.

١٤. فلسطين: ١ رواية واحدة

١٥. الصومال: ١ رواية واحدة.

وبما أن المسابقة كانت موزعة على فئتين من الكتّاب: كبار الكتاب، وفئة الشباب، فقد كان النصيب الأوفر للروايات الواردة من قبل الفئة الأولى؛ إذ بلغ عددها مائة وستة وثمانين رواية، فيما بلغ عدد الروايات الواردة من قبل فئة الشباب ثمانية وثمانين رواية.

ونتيجة للآليات المتبعة في وضع الضوابط والشروط المقررة من قبل اللجان القائمة على المسابقة، فقد تم اختيار الروايات التي حظيت بالفوز من بين الروايات المنافسة والكثيرة في ضوء المعايير الأدبية والفنية وغيرها من الشروط التي أُعلن عنها في الجائزة.

وقد حازت الرواية الماثلة بين يدي القارئ الكريم المرتبة الثانية من فئة الشباب، والتي سُلط الضوء فيها على موضوعة غاية في الأهمية، إذ تناولت الحروب الأهلية وما يترتب عليها من دمار للبلاد وفتن وتفرقة بين الأهل والإخوة والأصدقاء..

ونحن بدورنا إذ نثمن هذا المجهود المبارك الذي قدمته الأستاذة سناء قاسم المرجي المحترمة ندعو الله العلي القدير أن يوفقها للمزيد من العلم والعمل الصالح.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الأفاضل في اللجان العاملة على هذه المسابقة القيمة، وأخص بالذكر: الروائي السيد نعيم آل مسافر المحترم، والأخ الدكتور علي كاظم داوود المحترم، والأخ الدكتور عباس فاضل عبد الله المحترم، والأخ الدكتور نعيم خماس جبر المحترم، والأخ الدكتور مهدي عيسى البطاط المحترم، والأخ الدكتور ناصر الجابري المحترم.

وكذلك الإخوة في اللجان التنظيمية: الأستاذ حيدر عبد الهادي حسن المحترم، والأستاذ السيد مقداد جاسم الغرابي المحترم، والأستاذ محمد ماجد هاشم المحترم، والأستاذ السيد محمد علي أمجد حميد المحترم، والأستاذ محمد حسين علي محمد رضا المحترم، والأستاذ منتظر زيد كامل المحترم، والأستاذ أمير أبو الزين المحترم.

وفي الختام أعرب عن عرفاني وامتناني لسماحة المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة العلامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) على رعايته الأبوية للمؤسسة ومشاريعها ودعمه المتواصل لهذا المشروع وبقية المشاريع الأخرى فيها، وكذلك جناب السيد الأمين العام للعتبة الحسينية المقدسة جناب الحاج حسن رشيد جواد العبايجي (دامت توفيقاته) على حرصه وحضوره الفاعل في هذا النشاط المبارك، كما أتقدم

بالشكر للإخوة الذين ساهموا في الإشراف والمراجعة الفكرية والتدقيق اللغوي، وأخص بالذكر: الدكتور السيد حاتم البخاتي، والدكتور السيد زيد البطاط، وجناب الشيخ غانم الجبوري، وجناب السيد قتاد الحسيني، سائلا المولى عز وجل أن ينفع بهذا العمل الذي قدموه وأن يأخذ بأيديهم لما فيه خير وصلاح.

والحمد لله رب العالمين.

مدير المؤسسة

الشيخ صباح عباس حسن

١٩ محرم الحرام ١٤٤٧

١٥ / ٧/ ٢٠٢٥

للقدرِ خيالٌ واسع.. أوسع من خيالاتنا بكثير.

فعندما نسير في دربٍ كنّا قد وضعناه نصب أعيننا، نتفاجئ بأنّ الدرب يمضي بنا بعيداً، ونحن نضع أقدامنا فقط حيث نظن أنّنا نسير نحو المراد.

نريد ما نهوى ونحب، ونُصيب في رغباتنا ما قد أمسكت به كفُّ القدر.

وما هوى منها لا يعود، حتى لو وضعته الصدفة في طريقنا مراتٍ ومرات.

وحتى لو ظننا بأنّنا نمتلك ما بين أيدينا، سرعان ما يتبخر ويستحيل كلّ شيء إلى وَهمٍ.

حلمٌ جميلٌ ظنناه حياة، وما كان في الحقيقة سوى أطياف يصعب الإمساك بها، مهما تداخلت وامتزجت مع عوالمنا.

ويبقى في القلب ما ليس ترسمه أقدار، ولا تغيره أيّام، ولا يبدده عُمُر.

هناك فقط نستطيع أن نمتلك الحبّ نبضاً.. و الأمل سكينةً.. والفراق ذكرى.

انتبهت من أحلامها فجأة، فتحت عينيها، سمعت صوتاً يخاطبها متسائلاً:

ـ أختاه!

ـ نعم.

ـ ألم تسمعي قرع الباب؟! آسفة لأنّني فتحته ودخلت، ولكنّني خفت أن يكون قد أصابك مكروه، قرعت الباب مطوّلاً قبل أن أدخل.

أطلقت فاطمة تنهيدةً طويلةً، اعتدلت في سريرها، وأومأت برأسها إلى الكرسي الخشبي بجانب السرير.

- اجلسي.
- كيف حالك؟
- بخير، الحمد لله.

أغمضت عينيها العسليتين الواسعتين مجدداً، كأنما لتكمل حلماً كانت قد بدأت مخيّلتها برسمه قبل أن تدخل أختها الغرفة، وتقطع عليها خلوتها.

في هذه الغرفة الصغيرة، التي تُمضي فيها معظم أوقاتها، تتقاسم أحزانها مع السرير والوسادة البيضاء.

كلّ شيء حولها ساكن مكلَّلٌ بالأسى، وكأنّ الأشياء من حولها تعكس معاناتها.

الستائر الفاتحة مسدلةٌ دون زركشة، والكرسي الخشبي مسنِدٌ ظهره إلى الجدار، السجادة البُنِّية يتيمة اللون مستلقية على الرخام الأبيض،

والخزانة الخشبية متشحة بالسواد، على الجدار بجانب السرير من جهة اليمين وقفت مرآةٌ مستطيلةٌ بلا زخارف.

لا ورود.. لا ألوان.. لا ثياب زاهية. كلّ شيء واجمٌ ساكنٌ بارد.

وحدها صورة صغيرة دسَّتها بأطراف أصابعها تحت الوسادة، سرقت كلّ البهجة والجمال. هناك فقط كانت كلّ الحياة وكلّ الوجود.

شَعرٌ كستنائيٌّ حريريٌّ مرفوعٌ فوق الجبين الواسع كشلالٍ صغير، حاجبان كثيفان، عينان واسعتان بلون العسل، أنفٌ أشم، وجهٌ عريض، شفتان ناعمتان زانهما شاربٌ ولحيةٌ خفيفة نبتت مؤخراً، وأحاطت بوجهٍ متناسق الملامح.

كلّ شيء جميل، كان بالإمكان أن نقول: إنّه شابٌّ وسيم، ولكن تلك النظرة الثاقبة، وذاك البريق، يستوقف المتأمّل ويطرح سيلاً من التساؤلات.

ـ انظري.

أدارت عينيها نحو الشيء الذي تمسك به أختها بين يديها، وسرعان ما اكتست ملامحها بالحزن والأسى.

- هذه الصورة للشهيد، سنضعها في غرفة الضيوف.

انتزعت فاطمة الصورة بعصبيّة، تأمّلتها للحظاتٍ قبل أن تلقي بها على السرير.

حدقت بأختها بنزق.. انتفخت أوداجها وأمسكت ثوبها بيدين مرتجفتين.

- من طلب منكم صوراً لابني!.. ولماذا تضعون هذه الشريطة السوداء ؟! قلت لكم مراراً: ابني لم يمت!.. لم يمت!.. لماذا تصرون على قول ذلك؟!! اتركوني أحيا على أمل أن يعود!.. تصرّون على تحطيمي وتمزيق قلبي.. لماذا؟!.. لماذا؟!

- أختاه هدئي من روعك، لا تصرخي أرجوك. أنا أشعر بك، وأعلم أن ألم الفقد صعب جداً، ولكن أنتِ تعرفين الحقيقة، وترفضين تقبّلها فقط؛ لأنّهم لم يحضروا لكِ جسد ابنك. عشرات الشهداء في سوريا لم يبقَ لأجسادهم أثر

بعض الجثث أُحرِقت، وبعضها الآخر الله وحده يعلم أين دُفنت، وأجساد تلاشت من هول الانفجارات في هذه الحرب اللّعينة. إذا كنتِ تحبين مجداً فارحمي روحه المتألمة لأجلك. ارحمي نفسك وارأفي بحالك. انظري إلى جسمك الهزيل وعينيكِ الذابلتين.

أعرف أنكِ تشتاقين له، ولكن من حقه أن نعترف به شهيداً، ونقيم مجالس لإحياء ذكراه، بما يليق بالتضحية التي قدمها من أجلنا.

أختاه، مضى خمس سنوات على استشهاد مجد... ليس وحده مفقود الأثر.

انظري كيف تقبّل أهالي رفاقه الحقيقة، وها هم يفخرون باستشهاد أبنائهم. هم يشتاقون كما تشتاقين ولكن برضىً وتسليم لمشيئة الله.

- بني مجد!.. لقد قطعت نياط قلبي!.. ليتني مُتُّ ولم أعش دونك يا ضياء عينيّ! لطمت وجهها وبكت بحرقة.

البارحة زارني في المنام..كان حزيناً شاحب الوجه.. رأيته يقف وحيداً.. ركضت نحوه.. حاولت أن أتكلم معه.. كان يشيح بنظره عنّي ويتحاشاني

حاولت أن ألمسه.. فاختفى دون أن يتكلم.

- نفس المنام؟!

- أجل نفسه تماماً، ما معنى ذلك؟! قلبي يتمزق كلما رأيت هذا الحلم، يأتي ويذهب بنفس الطريقة، ويتركني حائرةً كسيرة.

- أعتقد أنّه حزين لأجلك، لذلك يرفض الكلام.

- ولماذا لا تقولين: إنّه جاء يعاتبني؛ لأنّني تركته وحيداً؟.. لماذا؟!

- في النهاية هو مجرد حلم، والأحلام ليست حقيقة، وأنتِ تعلمين جيداً أنّنا تقصينا أخباره. ألم يتواصل قادته مع المسلّحين للسؤال عنه؟! ها.. قولي ؟ كيف تنكرين ذلك؟! ألم يصل خبر من خالد بأنّه رآه مقتولاً؟!

تضع فاطمة رأسها على كتف أختها. تغرقان في نوبة من البكاء.

تتساقط الدموع الساخنة بغزارةٍ، نسمات عليلة تدخل الغرفة عبر النافذة المفتوحة. حمرة رماديّة تلوح في الأفق، حيث يتعانق الموت مع الولادة، تموت حياة وتخرج أخرى من رحم الموت.

على حدٍّ فاصلٍ بين الحاضر والمجهول، يقف القدرُ باسماً.

زينب

٢٤/ آذار / ٢٠٢٠م

وقفتُ أمام الرزنامة المعلّقة على الجدار المصفرّ أحدق بالورقة الصغيرة بألم.

ركزتُ عينيّ على التاريخ. غرقتُ في اللاوعي للحظات.

العالم من حولي في ضجيج؛ أمّا أنا فقد توقف الزمن أمامي فجأة.

مددتُ يدي ببطء، لامست أصابعي الورقة، سحبت يدي بسرعة، ووضعت الأخرى على صدري، ثمّ رميت بثقلي على الكرسي.

فتح حارس الذكريات صندوقي المليء بالصور، وبدأ الشريط يمرُّ أمامي.

أزيز الرصاص.. سيارات محمّلة بالنساء والأطفال.. صراخ.. بكاء.. تكبيرات في المساجد.. أصوات انفجارات.. طريق طويل.. وداع.. بيوت حزينة.. سماء مظلمة تنيرها قذائف الهاون والصواريخ.. شاب على وجهه ابتسامة.

أغمضت عينيّ لأسدّ الطريق أمام الدموع.

فتح زوجي الباب، وضع حقيبته على الطاولة، نظر إليّ وألقى التحية، وقف خلفي، ثم سار باتجاهي ثلاث خطوات ونظر إلى الرزنامة، أطلق زفرة طويلة.. مد يده بخفة وانتزع الورقة، ثمّ تركها تنساب من بين أصابعه وتسقط على الأرض.

هذا اليوم بالنسبة له سقط وضاع، ولن يعود مهما تتالت الأيّام وتعاقبت السنين.

ـ ما هذه الرائحة الشهيّة؟ أرز وبازيلاء، أنا أتضوّر جوعاً.

رفع الغطاء عن الوعاء، وبدأ بتذوق الطعام، مضغ اللقمة الثانية ثم أصبحتْ حركة فكيه بطيئة، ابتلع الأرز بصعوبة وهو يحملق بجسدي الساكن فوق الكرسي.

- زينب!.. زينب! أين الأولاد؟

اتّجه نحو غرفة الأطفال، فتح الباب ودخل.

أمّا أنا فما زلت متسمّرة مكاني، أحدق بالورقة التي سقطت أرضاً، والدموع قد اجتاحت وجهي رغماً عني.

أخذتني تلك الورقة إلى مدينتي البعيدة، هكذا تماماً ضاع كلّ شيء. ما أشبه المدن بالأوراق عندما تتساقط، تُسلب من كليهما الروح، تصفرُّ، ثم تذوي وتتهاوى.

أما الأوراق؛ فإنّها عندما تسقط تموت وتُداس وتصبح مهملة.

لكنّ المدن عندما تسقط لا تموت أبداً، حتى لو دُمرت بالكامل، أو تغيَّر ساكنوها.

وإن اندثرت فسرعان ما تولَد من رحم الأرض من جديد.

مدن منسيّة، وأخرى مفقودة، مدن في جوف الأرض، وأخرى تشمخ تحت زرقة السماء، مدن نسكنها وأخرى تسكن فينا. أنا أعلم بأنّها عامرة، لا بوجودها المادي البحت، بل عامرة بمن يحملها بين ضلوعه خوفاً وفي عينيه حبّاً.

هي موجودة ما دامت تحيا فينا، وتنبض دماؤنا في عروقها وترويها، فتنبت ذكوراً وإناثاً، نباتات وحجراً.

سمعتُ ذات يومٍ أنّ المدن تخون أهلها، ولكنّني رفضت تلك الفكرة بشدّة.

وهل المدن إلّا نحن؟! وهل تتخلى عنّا إن لم نتخلَّ عنها؟!

هي لا تخون، بل تُختطف عنوةً، وتُستباح غدراً؛ إن كان أهلها مستضعفين.

التقطتُ الورقة وضممتها إلى صدري، أخذت أخاطبها بقلبي...

انتفض جسدي فجأة.

ـ آسف، لقد أرعبتك، أليس كذلك؟

أمسكَ بكلتا يديّ الباردتين، وقف قبالتي، رفعتُ عينيّ لتلتقيا عينيه الدافئتين، ثمّ أفلتُّ منه وابتعدت نحو المطبخ.

كان يحزنه حالي وخصوصاً في هذا التاريخ بالذات.

لم أجلس معه بعد الغداء لشرب الشاي كما هي العادة، انسحبتُ إلى غرفتي متذرعةً بتعبٍ أصابني، أغلقتُ الباب خلفي، أطلقتُ زفرةً طويلة.

تأكدت من إغلاقه، كما لو أنّني أتأكد من إغلاق حدٍّ فاصلٍ بين عالمين؛ لأهرب من أحدهما إلى الآخر.

استلقيتُ على سريري وأغمضت عينيّ، أرسلتُ روحي تطوف في مكانٍ آخر حيث بدأت الحكاية.

زينب

٢٠١١/٥/٩

أزحت الغطاء عن جسمي ومشيتُ بتثاقل نحو المطبخ، لم أستيقظ بهمّةٍ ونشاطٍ، بل استيقظت بحكم العادة في نفس الوقت، السادسة صباحاً.

أعددت لنفسي فنجاناً من القهوة، لم أضع ملعقة السكر التي كنت أضيفها؛ حتى أستسيغ مذاقها، بل تركتها كما هي بطعمها المرّ، وأخذتُ أرشف منها بنزق.

مزاجي معكّر، ولعلّي لم أنتبه للنكهة المرّة التي ملأت فمي.

شعرت أنّني أصحو للتوّ في عالمٍ مجهول، توسعت عيناي وهرب الدم من أطرافي، أصبحت كتمثالٍ رخامي، وقفتُ بسرعة، دفعت الكرسي البلاستيكي الأخضر جانباً، وأسرعت إلى نافذة المطبخ. كدت أؤذي أصابعي النحيلة بمقبض النافذة المعدني، وأنا أديره بسرعة دون تأنٍ. انفرجت النافذة، دخلت نسمات منعشة وداعبت وجهي. كانت قلعة بصرى الشامخة تنتصب أمامي بكلّ شموخٍ وعظمة. رمقتها بنظرةٍ خاطفة، كما رمقت كذلك الفندق الوحيد الذي يبعد عن القلعة حوالي ثلاثمائة متر نحو الجنوب.

وقفت على رؤوس أصابعي وركزت نظري أكثر. تمنيت لو كان

باستطاعتي أن أمدَّ يدي؛ لأزيح بعض الأبنية المرتفعة أمامي؛ كي أرى المكان الذي بحثت عنه عيناي الحائرتان.

أعدتُ الكرة عدّة مرات، ثمّ قررت أن أسحب الكرسي إلى جانب النافذة وأعتليه علّي أرى بوضوحٍ أكثر.

بدى المشهد واضحاً الآن، وضعت يدي على فمي لأكتم شهقةً. نزلت من على الكرسي، واسترخى جسمي المتصلّب، ثمّ وثبتُ بخفةٍ ثانيةً لأتأكد أنّني لا أحلم، وكم تمنيت في قرارة نفسي لو كان ما حصل في الأمس حلماً، ولكن اختفاء العلم السوري من على سطح مركز ناحية الشرطة كان كافياً ليؤكد لي أن ما حصل حقيقة.

وضعت رأسي بين كفيّ وضغطت صدغيّ بأصابعي لأخفف الصداع.

كيف تأزّم الوضع لهذه الدرجة؟.. يا إلهي ما الذي يحصل؟... وإلى أين نسير؟

حسام

١٥/ ٩/ ١٩٩٩

مدرسة الشهيد عبد الكريم النجم.

الصف الأوّل الشعبة الثالثة.

صوت بكاءٍ متواصل تحوّل إلى نشيجٍ مكتوم.

جميع الأطفال مشدوهون، يحدقون بالمعلّمة سمر، التي وقفت قبالة المقعد الأوّل وهي ترفع حاجبيها، وتنقر بيدها اليمنى على الطاولة نقراً خفيفاً، لكنّه كفيلٌ بجعل جميع الأطفال يجلسون دون حراك.

وحدها عيونهم الصغيرة المترقّبة تنتقل بين وجه المعلمة المتجهّم وجسد الطفل ـ أنا حسام ـ الذي تحدى المعلّمة بعناده.

كنت ألفُّ ذراعيّ حول عنق الطفل الجالس بجانبي، وأشدّه بقوّةٍ نحوي بحيث لم يتمكن من التملّص من عناقي.

انتفض قلبي واغرورقت عيناي، اجتاحتني رغبةٌ عارمةٌ في البكاء، لكن الصدمة منعتني من الإفراج عن الدموع، فاكتفيت بابتلاع لعابي بصعوبةٍ والتحديق بوجه المعلّمة.

اقتربت المعلّمة منّي، وأخرجت منديلاً من جيب معطفها الأخضر، قربته لتمسح مخاطي، فأشحتُ بوجهي وصرختُ: ابتعدي عنّي.. ابتعدي عنّي.

لا تخف يا صغيري.. خُذ هذا المنديل وامسح أنفك.

رفضت أخذ المنديل من المعلّمة ودسست رأسي في عنق صديقي، في حين استمر هو بمراقبتي بنظرةٍ جانبيّة.

تنهّدت المعلّمة وتحدثت بصوتٍ ودود: أطفالي الأعزّاء.. هذا يومنا الأوّل في المدرسة.. أتينا إلى هنا كي نتعلّم القراءة والكتابة ونلعب سويّاً، ونتعلم أشياء كثيرة.

هذا صفكم.. المقاعد، السبورة، الطاولة، الأقلام والكتب تخصكم أنتم، ويجب أن تحافظوا عليها كما تحافظون على أغراضكم الخاصّة.

أعزائي، قبل أن نبدأ بالتعلّم، يجب أن تنتبهوا إلى موضوعٍ مهم وهو طاعة المعلّم.. طاعة المعلّم واجبة على الطالب، كما هي طاعة الأم والأب.. أليس كذلك أحبائي؟

علت الأصوات : أجل، أنا سأطيعك يا معلّمتي.

ـ أنتِ مثل ماما.

ـ أنتِ جميلة تشبهين ابنة عمي لينا.

ـ أنا أحبك.

ـ ما اسمك يا خالة؟

ضحكت المعلّمة من تعليقات الأطفال البريئة، وانفرجت أساريرها، وهمست: هذا يكفي.. أثرتم الضجة.. نحن بذلك سنزعج باقي الصفوف في المدرسة.

هدأ الطلاب واستدارت المعلّمة نحوي للمرة الثانيّة، هيّا يا حسام، أجبني.. هل ستسمع كلامي وتنفذ ما أطلبه منك؟

لم أنبس ببنت شفة، بل واصلت عناق مجد.

انظر إلى باقي الطلاب كيف جلسوا في المقاعد المناسبة. قصار القامة في المقاعد الأماميّة، والطوال في الخلف، وأنت أكثر الطلاب طولاً، ولا ينبغي أن تجلس في المقعد الأوّل. ماذا عن ثلاثة طلابٍ مساكين يجلسون خلفك وهم أقصر قامة منك؟! لن يتمكنوا من رؤية ما سأكتبه على السبورة.. هل يجوز ذلك؟!

استمرّ صمتي مع عناقٍ أقرب للخنق. تمتمت المعلّمة: يا لك من ولدٍ عنيد.

ربما هذا ما دفع مجداً للخروج عن صمته: أنا سأرجع إلى الخلف مع حسام يا معلّمتي، أريد أن نجلس سويّاً.

تنهدت المعلّمة: ارجعا إلى المقعد الأخير ريثما نجد حلاً.

بدأ العام الدراسي بعد مفاوضات باءت بالفشل، منتهيةً بالتضحية التي قام بها مجد، الأقصر قامة في الصف، لكي يبقى معي، أنا صديقه الملازم له منذ الولادة.

حدثتني أمّي عن تفاصيل اليوم المميز الذي ولدتُ فيه أنا ومجد:

في السادس من شهر كانون الأوّل، خرجتُ ومجداً إلى هذه الدنيا معاً في ليلةٍ شديدة البرودة، قضَّ فيها صراخ الجارتين ـ فاطمة وأميرة ـ مضاجع سكان الحي.

القابلة تقوم بتوليد أميرة بينما تجلس فاطمة بجوارها، هذه تشدّ على يد جارتها من شدّة الألم، والأخرى تطبق أسنانها بقوّة حتى شعرت بألمٍ في فكيها.

كانت ليلةً عصيبة، جميع من في البيت في حالة توتّر وترقّب. استمرت معاناة أميرة مع المخاض ساعات طوال، حتى ازرقَّ لونها فجأةً.

نهضت القابلة وتحدثت بقلق: وضع أميرة حرج، ويجب أخذها إلى المستشفى، أطرقت برأسها وأردفت: لم يعد بإمكاني مساعدتها.

لملمت فاطمة ثوبها وأسرعت لمناداة أبي خالد، وقبل أن تتجاوز عتبة الباب علا صراخ طفل.. حمداً لله! لقد ولدت أميرة. تعالي يا فاطمة، نادت القابلة.

لكن فاطمة أمسكت مقبض الباب وصرخت، شيء ما أمسك بها من كتفيها وسحبها نحو الأسفل. جثت فاطمة على ركبتيها وقد تبللت ثيابها. صرخت: أرجوكم ساعدوني.

أسرعت شقيقة أميرة إليها: ما بك يا فاطمة؟

رأت ثيابها المبللة فشهقت: لكن.. لكن لم يحُنْ موعد ولادتكِ بعد! ساعديني.. لا أستطيع أن أقف.

أمسكت بيدها وأدخلتها إلى الغرفة، وما هي إلّا ساعة حتى سُمع بكاء طفل آخر، مترافقاً مع خيوط الصباح الأولى.

كانت سعادة أبي خالد لا توصف برؤية طفله الجديد، أسماه حساماً ليحمل اسم والده المتوفّى.

خُذْ ابنك يا أبا خالد وأذّن له، قالت القابلة.

حمل أبو خالد طفله بحبٍّ، نظر إلى وجهه الممتلئ وبشرته المحمرّة وقال: يبدو أن ولدي يشبه أخواله؛ رأسه كبير. ضحك الجميع ثمّ

أضاف أبو خالد: لكن عينيه داكنتان واسعتان كعيني أمّه. يا الله! انظري يا أميرة، لقد فتح عينيه، ما أجمل هاتين العينين! حماكَ الله يا صغيري!

هيّا يا أبا خالد أذّن للطفل، لا تستطيع أن تحكم على ملامحه من اليوم الأوّل، سيتغير شكله.

في المنزل الكبير المقابل لمنزل أبي خالد ، وتحديداً الغرفة الوسطى، كان أبو علي يحمل طفله بسعادةٍ كبيرة، رغم المفاجأة التي سببها قدومه قبل موعد ولادته بشهرين.

تأمل وجهه الناعم ولونه الشاحب، بدا جسمه ضعيفاً جداً ، فأسرع حاملاً إيّاه إلى المستشفى.

مرت الأيّام وكبر الجاران الصغيران ـ مجد وأنا ـ ازداد تعلقنا ببعضنا يوماً بعد يوم. لم يُعقد ميثاق صداقتنا في أول أيّام الدراسة كما هي عادة الأطفال، ولو أن بعض الصداقات تتكّون في أيّام النطق الأولى، حين يشعر الطفل أنّه ذات منفصلة عن الأم، بل عُقد ميثاق صداقتنا مبكراً جداً، وقبل أن نفهم ماهيّة الصداقة وفلسفتها، منذ أن سمع مجد صرختي الأولى، التي ربما كانت نداءً لم يفهمه سواه، فأبى أن يبقى في ذلك الرحم المظلم، واندفع غير آبهٍ بضعفه وأشهُره غير المكتملة.

تحت شجرة التوت الكبيرة جلسنا، طفلان شقيان يتهامسان ويضحكان، يحدقان بصورة صغيرة أخذاها خلسة أثناء انشغال الأهل بشرب الشاي. تسللنا بعيداً تحت الشجرة لنتفحصها أكثر عن قرب.

لم يكن هناك شيء مثير للاهتمام في هذه الصورة؛ فالكائنان

الموجودان فيها يبدوان مضحكين بعض الشيء، أحدهما يبدو أقرب لمخلوقٍ فضائي ـ أنا ـ بوجهٍ منتفخ وبشرة حمراء وعينين جاحظتين، وهذا طبعاً يرجع إلى تعبي أثناء ولادتي. غدوت فيما بعد طفلاً جميلاً بوجهٍ بيضوي أسمر، وعينين سوداوين واسعتين، شعرٍ أسود اللون، فم ثخين الشفتين وأنف بارز بعض الشيء.

أمّا الكائن الآخر ـ مجد ـ الأصفر الشاحب شديد النحول ضامر وكأنّه فأر. تحتاج لعدسةٍ مكبّرة؛ حتى ترى ملامح وجهه بوضوح، هو ذات الطفل الوسيم متناسق الملامح، أبيض البشرة، صاحب الشعر الكستنائي، العينين العسليتين والوجه العريض.

- انظر يا مجد، تشبه الفأر. أخفيت وجهي بيديّ وضحكت.

- وأنت شكلك مضحك، تبدو كالمخلوقات الفضائية في برامج الأطفال.

انتهت موجة الضحك والمزاح، أحطت كتفَيْ مجد بذراعي، قربنا وجهينا أكثر من الصورة نتأملها هذه المرّة بصمت وشبح ابتسامة يرتسم على ثغر كلينا.

ما الذي جعلنا حينها نبتسم هكذا ابتسامة سعادة لا سخرية؟

بل ما الذي دفع أهلنا لالتقاط هذه الصورة؟

هل هو موعد قدومنا معاً؟..هيئتنا المضحكة؟.. أم أنّ شيئاً آخر أكثر أهميّة هو السبب في توثيق تلك اللحظة؟

مددت يدي اليسرى نحو يد مجد اليمنى، أمسكت بإصبعه السبابة

تماماً كما في الصورة الأولى التي جمعتنا معاً. حين وضعتني القابلة إلى جانب مجد ، لتلتفت للمرأتين المتعبتين، وبعد لحظات كان الجميع متجمهراً فوق رأسينا يحملقون بالحركة غير المعتادة.

قالت القابلة: انظروا إلى حسام كيف يمسك أصبع مجد! سبحان الله!

تلك الحادثة الغريبة بقيت حديث الحيّ لفترة طويلة، تُعاد مرات ومرات على مسامعنا كلّما اجتمعت العائلتان، بل كلّما اجتمعت العائلتان مع شخص جديد لم يسمع بتفاصيلها.

كانت شجرة التوت وسط حديقة بيت أبي علي المكان المفضّل للعبنا، تارةً نتسلقها ونقوم بقطف حبات التوت وأكلها، أو صنع ألعاب من الطين، أو حتى البحث عن الديدان.

هكذا، وفي كل يوم، في الوقت المخصص للعب، وقت انشغال والدتينا بإعداد طعام الغداء، يسمح لنا باللعب معاً وتحديداً في الحديقة.

حديقة منزل أبي علي تحوي عدداً من أشجار الزيتون ، وشجرة توت عملاقة تتوسط الأشجار، بينما ترتفع جانب سور البيت شجرة جوز كبيرة، يتدلى من أحد أغصانها القويّة أرجوحة، صُنعت من حبلٍ متين وقطعة من الخشب المطلي.

لم تكن الأرجوحة تغرينا كثيراً، فسرعان ما نتركها ونتجه نحو شجرة التوت ونبدأ بحفر الطين واللعب، رغم تحذيرنا من توسيخ الثياب، لكن كنّا نجد متعةً كبيرةً بذلك.

يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي نفترق فيه ولا نلعب معاً؛ فهو مخصص لزيارة بيت الجد والجدّة في قرية جمرين الملاصقة لبصرى الشام.

تستيقظ عائلة (أبو علي) باكراً، ويرتدون أجمل الثياب، يتوجه مجد مع أخيه علي والذي يكبره بثلاث سنوات، وأخته بتول ذات الأعوام الخمسة، التي تصغر مجد بعامين إلى سيارة والدهم بانتظار بدء الرحلة.

من عادة عائلتنا النوم لوقتٍ متأخر يوم الجمعة، باعتباره يوم عطلة.

لكنني أستيقظ باكراً، أسرع إلى نافذة المطبخ، أقف على كرسيٍّ خشبيٍّ وأطلّ رأسي كي أراقب جيراننا وهم يستعدون لمغادرة المنزل بهمّة ونشاط.

يشغّل أبو علي سيارة البيك أب البيضاء وينادي: هيّا يا أولاد، لا تتأخروا. يسرع الصغار لصعود السيّارة. ألوّح بيدي لمجد: إلى اللقاء!.. مع السلامة!

ـ أراك غداً يا حسام.

أحرك رأسي يمنةً ويسرة، كي أستطيع الرؤية من بين أغصان الأشجار ومراقبة السيّارة وهي تبتعد. تختفي السيّارة عن الأنظار، إلا أنّني عادةً أبقى دقيقة أو اثنتين أحدقُ بعيداً حيثُ ابتلعَ الغياب صديقي الوحيد.

أدخل حالة من الكآبة، هكذا في كل يوم جمعة، ومنذ أن أصبح طقس اللقاء مع مجد مصدر سعادتي اليوميّة، فليس لديّ جَدٌّ وجدة أزورهما كمجد.

جدي وجدتي لأمّي يسكنان في الأردن، أمّا جدي وجدتي لأبي فقد توفيا قبل ولادتي.

وطبعاً مع فارق السن الكبير بيني وبين أخي خالد، الذي يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً؛ فمن الطبيعي أن أشعر بالوحدة، خصوصاً أن خالداً يقيم حاليّاً في المدينة الجامعية في دمشق لمتابعة دراسته في كليّة الحقوق.

هو يأتي إلى بيتنا يوماً أو يومين في الشهر، ولا يكاد يجلس مع العائلة إلا وقت وجبات الطعام، أو لمناقشة بعض المواضيع بشكلٍ مقتضب، ويمضي معظم وقته خارج المنزل مع الأصدقاء، في هذه الأيّام القليلة التي تعتبر بمثابة الإجازة.

وبالطبع والدي الذي يقدّس العلم والتعلّم، مع أنّه لم يكمل تعليمه، يفعل أيُّ شيء لأجل خالد، لكن يحثُّه دوماً على الجد والاجتهاد، حتى في أيام الإجازة.

- بني، اهتم بدراستك ولا تضيّع وقتك. لو سمح لي والدي بمتابعة تعليمي لكنت الآن طبيباً.

وطبعاً محمّد ـ أبو خالد ـ الذي لم يحصل على الشهادة الابتدائية، كان ضعيفاً في معظم المواد الدراسيّة باستثناء الرياضة.

ينظر خالد إلى والدي ويغمز بعينه اليمنى: هل أخرجك والدك من المدرسة لمساعدته في العمل.. أم لسبب آخر؟!

- اسكت يا ولد! كانوا يسمونني في المدرسة ملك الحساب.

وملك الحساب هذا، كانت أعلى علامة له في مادة الرياضيّات ستة من عشرة. احمرّ وجه أبي وانشغل بارتداء القفازين الأسودين من أجل حماية أصابعه من الاسمنت والحجارة، أثناء عمله في بناء البيوت، بعد أن باع الماشية التي ورثها عن أبويه واتجه إلى أعمال التعمير والبناء، التي تفوق تربية المواشي مشقةً وتعباً.

مجد

على سدِّ الوادي الزيدي في قرية جمرين، كنتُ وإخوتي مشغولين بإمساك البلاعط السوداء ـ صغار الضفادع ـ ووضعها في أوانٍ بلاستيكيّة.

كنت أسرعهم في اجتياز السدّ الأبيض، عندما يكون منسوب المياه منخفضاً، حيث الماء يجري بشكلٍ ضعيف. أمشي بحذرٍ خطوةً خطوةً ممسكاً بيد أخي عليٍّ؛ خوفاً من الإنزلاق مع الماء.

هذا الربيع، وقفت أنا وإخوتي والدهشة بادية على وجوهنا، فقد كان جريان الماء مذهلاً ومرعباً في الآن ذاته، ومهمّة اجتياز السد مغامرة محفوفة بالمخاطر.

لم يكن الوقوف وتأمُّل جمال الماء ما أرغب به، كنت أدبّر لشيء ما في نفسي.

انتبه علي لشرودي فصفعني على عنقي من الخلف، لماذا لا تردُّ؟! ناديتك ثلاث مرات!

لماذا صفعتني!.. لم أسمعك.

ضحك علي.. كنت أمزح معك، هيّا نرجع إلى بيت جدّي.

لا أريد.. اذهب أنت وبتول.

وقبل أن يبتعد علي علا صوت الأولاد عند الوادي، انظروا إلى ذلك الصبي!.. إنّه يجتاز السدّ، هي انتبه!

استدار أخي علي وتوسعت عيناه، صرخ بصوتٍ عالٍ: مجد!.. أين تذهب يا مجنون؟!

أمّا أنا، فقد شمّرتُ عن ساقيّ النحيفتين ومشيت بهدوءٍ شديد، ثمّ تجمدت وسط السد، حيث قوة دفع الماء منعتني من التقدم أكثر وحرفت مساري نحو اليسار. كدت أنزلق أكثر من مرّة ، تأرجحت كمن يقف على حبلٍ معلّق في الهواء.

توقف يا مجد!.. سيسحبك الماء!

وقفت حيراناً وقد تسارعت نبضات قلبي، وتسلل الخوف إلى أطرافي.

كانت فكرة اجتياز السد تهوراً أكثر منها مغامرةً شيقةً.

المتعة التي كنت أتخيّلها قبل أن أتجرأ على تحدّي الماء الجاري، ليست في اجتياز السد بحد ذاته، وإنّما في الوصول إلى الطرف الآخر؛ حيث الأراضي الزراعيّة التي يمتلكها جدي. هناك تلتقي السماء والأرض وتتحدان، وتتربع مساحات واسعة من أشجار التين، والزيتون، والمزروعات المختلفة ؛ القمح، والحمّص، والشعير، والعدس؛ والبطيخ، والقثاء، والعجّور.

عندما يأتي ذكر الجنّة على مسامعي، كانت مخيلتي الصغيرة تنتقل فوراً إلى البساتين التي يمتلكها جدي والد أمّي. تلك كانت صورة الجنّة بالنسبة لي، كيف لا، والآن فصل الربيع، ومنظر الأزهار البريّة المنتشرة في الحقول أكثر ما يسحر فتىً ذا طبيعة حساسة مثلي.

كانت محاولة الثبات بالأمر الصعب، انزلقت رجلي وسحبني الماء، حيث سقطت في مجرى الوادي.

علا صراخ الأطفال محاولين استدعاء النجدة، وبعد لحظات قليلة، جاء شاب مسرعاً

وقفز في بركة الماء وانتشلني، كنت متشبّثاً بصخرةٍ كبيرة.

كُسرت رجلي اليسرى، الأمر الذي حرمني متعة التنزه وزيارة بيت جدي. بقيت حبيس البيت أكثر من شهر، وعزائي الوحيد زيارة صديقي حسام لي، وقضاء وقتٍ ممتع في قراءة القصص البوليسيّة ـ ألغاز المغامرين الخمسة وقصص أجاثا كريستي ـ التي أصبحت هوايتنا المفضّلة.

في الأمس القريب كنّا صغاراً بعمر أحلام الطفولة. لكم أتمنى لو أنّنا بقينا صغاراً، نلعب ونلهو بعفويّة دون أيِّ اعتبارات أخرى.

في الأمس كنّا صغاراً بعمر قطرات الندى، كنّا كأزهار الربيع، كالفراشات، كالطيور ترفرف فوق سنابل الحقول بحريةٍ وصفاء، كنّا صغاراً بعمر القمر. نضحك ونبكي، نتشاجر ثمّ نتصالح، نمرُّ بأطوارٍ مختلفة من المشاعر، لكن كلّها نقيّة مشرقة، لا يشوبها الحقد، ولا تكدرها الضغينة، فسرعان ما تتغلّب مشاعر الحب والبراءة على غيرها؛ فتكتمل السعادة في وجوهنا الباسمة.

كنّا كخبز الجائعين صغاراً.. لم نتخيّل أن تلتهم طفولتنا الجوعى كلّ ما فينا من حياة، وتتركنا أحلاماً موءودة على شفا القدر.

جلست أستمع صوت ارتطام حبّات المطر بنافذتي الموصدة. بدأ سيل الذكريات يتدفق في ذاكرتي، يرجعني إلى أقرب الأيّام لقلبي، وأتساءل: لماذا نسترجع أجمل الذكريات في أحلك الأيّام وأكثرها حزناً؟! ما الرابط بين الحزن والفرح وهما نقيضان؟! وهل يقرع الفرح باب الحزن كي يواسيه ويخفف من عبئه؟ أم ليزيده قتامةً وألماً؟.. لا أدري.

كلّ ما أعرفه أن العلاقة بين الغيوم والمطر، تشبه العلاقة بين حزني ودموعي.

كان أبي يفضّل فصل الشتاء على باقي الفصول، ويقول: إنّ جوَّ الشتاء حميميٌّ جميل، تجتمع العائلة حول المدفأة لشرب الشاي الساخن، وتناول الكستناء المشويّة، وبزر ميال الشمس، والزبيب، والأطعمة الساخنة اللذيذة، وقراءة القصص، وتصفح الكتب العلميّة والدينيّة.

كنت أرى أبي دائماً في مزاجٍ حسن في فصل الشتاء. أبي يحب لمّة الأهل والجيران، وأنا أشبه أبي كثيراً شكلاً ومضموناً.

يعيدني الشتاء دوماً لأبي، وخصوصاً الأيّام الماطرة. كبرت ورحل أبي في يومٍ ماطرٍ كئيب، ولعلّ تعلقي بفصل الشتاء سببه حبّي وتعلّقي بأبي، أو لأنني أحببت أبي كثيراً فأحببت كلّ ما يحبه.

كان أبي حنوناً جداً، عطوفاً علينا جميعاً، وقد خصّني بالنصيب الأكبر من محبته وعطفه. لا أذكر أنّه ضربني في يوم من الأيّام. كنت رفيق دربه، أذهب معه دوماً إلى المسجد، منذ أن كان عمري ستَّ سنوات؛ فتعلّمت الصلاة في عمرٍ صغير، والتزمت بها والحمد لله.

أمّي كانت أكثر حزماً من أبي، تعاقبنا إذا أخطأنا. أبي كان يحزن إذا قام أحدٌ منّا بأمرٍ مخالفٍ لقواعد الأدب والأخلاق، التي حرص على غرسها فينا منذ نعومة أظفارنا. يكفي أن ترتسم علامات الغضب على وجهه، حتى تنزل كالصاعقة على رؤوسنا، فنندم ونبكي، ونسارع للاعتذار منه؛ لأنّنا ما اعتدنا إلّا أن نرى وجهه باسماً وروحه مرحةً.

تعيدني ذكرى أبي لأجمل الأيّام التي لن أنساها ما حييت.

أوّل مرةٍ اصطحبنا فيها والدي لحضور مهرجان بصرى الدولي، كدت أطير من الفرح، كان المهرجان يُقام في شهر أيلول من كلّ عام ويستمر خمسة عشر يوماً، مؤخراً أصبح عشرة أيّام، حيث تشهد بصرى حضوراً جماهيريّاً لا مثيل له، قلَّ نظيره في المدن السوريّة.

يبدأ توافد السيّاح إليها من كلّ أنحاء العالم مع بداية الربيع، ويستمر حتى نهاية الصيف، ويبلغ ذروته في شهر أيلول. يقصدونها لمشاهدة الآثار العائدة إلى عصور وحضارات مختلفة. فبصرى بغناها تعتبر متحفاً مفتوحاً في الهواء الطلق: هناك الأبنية، والمعابد الوثنيّة، والحمامات، وسرير بنت الملك الذي ترتبط قصته بأميرة تنبأ العرافون بموتها بلدغة عقرب، فأمر والدها الملك ببناء سريرٍ حجري على عمودين شاهقين لحمايتها، لكنها ماتت بلدغة عقرب كان تحت عنقود عنب أكلت منه وهي مستلقية على سريرها. وكذلك يوجد القصور الملكيّة، مثل: القصر الإمبراطوري، والمعبد النبطي، ومعبد حوريات الماء، وقوس النصر، والكنائس، ودير الراهب بحيرى، الذي تنبأ بنبوّة

النبي محمد ، خلال إحدى رحلاته التجاريّة بين مكة ودمشق. ويوجد مسجد مبرك الناقة؛ حيث بركت ناقة النبي محمد عندما زار بصرى ثانيةً وبُني مسجدٌ هناك، وجامع العروس ـ المسجد العمري ـ الذي بناه الخليفة عمر بن الخطّاب، وهو أوّل مسجد يبنى في بلاد الشام، وواحد من ثلاثة مساجد ما زالت تحتفظ بالطراز الإسلامي القديم، والكثير من المعالم الأثريّة العظيمة.

كان مهرجان بصرى يستقطب فرقاً من عدد كبير من دول العالم؛ لعرض الفنون والفلكلور الذي يمثل كلّ دولة. أذكر: فرقة الصين الشعبية التي غلب على عروضها السيرك وألعاب الخفة، أيضاً فرق من بلغاريا، ورومانيا، وروسيا، والهند، والأردن، ومصر، والسعوديّة، ولبنان، وفلسطين وغيرها.

كان أبي يستثني الحفلات التي يحضر فيها المغنون والمغنّيات؛ فقد كان رجلاً متديناً حريصاً على تربيتنا بعيداً عن أجواء الطرب والغناء، وفي تلك الأيّام يأخذنا لنتمشى حول القلعة ونشاهد التحف القديمة، عروض الخيل العربيّة الأصيلة، والمعروضات التراثيّة من بسطٍ ملونّة وملابس شعبيةٍ قديمة.

عندما كنت صغيراً، أذهلني المسرح الكبير الذي يتوسط قلعة بصرى بعظمته وجماله، كان من أكمل مسارح العالم وأعظمها، وكثيراً ما يخطئ البعض فينسبون مدرج بصرى للرومان، لكن الحقيقة أن مصمم هذا الصرح المعماري العظيم هو المهندس البارع أبولودورو

الدمشقي، الذي وظف علوم الفيزياء في عمله، فوضع للمسرح تصميماً فريداً من نوعه بحيث يصل صوت الممثل إلى آخر مشاهد في الصف الأعلى من المدرج، من خلال استخدامه لرفاريف حجريّة، تقوم بوظيفة تضخيم الصوت.

بُني هذا المسرح على أنقاض قلعةٍ نبطيّة خلال حكم الإمبراطور الروماني تراجان، والذي احتل بصرى عام ١٠٦م، عندما كانت عاصمة للعرب الأنباط في عهد آخر ملوكهم رعبيل الثاني.

كنت غالباً أجلس في القسم الأوسط من المدرج أثناء حضورنا المهرجان. أتأمل المسرح المنحوت من الحجر البازلتي الأسود الجميل. المدرج يعجّ بالجمهور، حوالي خمسة عشر ألف متفرج موزعين في حلقاتٍ نصف دائريّة، تتوسع كلّما صعدنا الدرجات السبع والثلاثين.

أول مرةٍ زرت فيها مدرج بصرى، أصابني الذهول والدهشة وأنا أجول بناظري بين المسرح والمدرج الواسع ومشهد السماء الرائع بنجومها المتلألئة.

تساءلت بعد انتهاء العرض: كيف سيخرج كل هذا الحضور الضخم؟! يا إلهي!

سوف نبقى لساعات ننتظر دورنا حتى نتمكن من الخروج، لكن حيرتي تلاشت وأنا أشاهد المدرج يفرغ من الجمهور بأقل من عشر دقائق، بسبب كثرة المداخل والمخارج المنتشرة بشكلٍ منسّقٍ ومنظّم.

في السنوات التالية عندما أصبحت في سنّ المراهقة، كنت أنا

وحسام ندخل من مكان ونخرج من الآخر، حتى شاهدنا أحد رجال الأمن المسؤولين عن تنظيم المهرجان، فقام باللحاق بنا وطردنا إلى خارج القلعة.

ضحكنا كثيراً وعاودنا الدخول والخروج من الأبواب الكثيرة التي تُشبه المتاهة، حتى تعبنا من مشاكسة الشرطي.. سقى الله تلك الأيّام.

فتحت النافذة.. كان المطر ما يزال يهطل بغزارة.. نظرت يميناً حيث تشمخ قلعة بصرى، يرفرف العلم السوري على زاويتها.

اللهم اجعل هذا البلد آمناً واكفنا شرَّ الفتن، كررتها عدّة مرات وأنا أنظر نحو السماء متوسلاً رحمة الله ولطفه. منذ انطلقت أوّل مظاهرة، وتبعتها سلسلة المظاهرات.

شهران أوصلانا إلى حالٍ من القلق والترقب.

الساعة الثامنة ليلاً.. الشوارع خالية تماماً من المارة. فرغت شوارع بصرى من الحركة والحياة.

كنّا نخرج لنتمشى ونزور الأقارب والجيران في أيّ وقت وأيّ يومٍ من السنة، لا فرق ما دمنا ننعم بالأمن والأمان.

الأمان.. آه، ما أجمل هذه النعمة التي وأدتها الثورة المزعومة، وحلّت محلّها الفرقة، فبتنا نشعر بالخوف بعد الطمأنينة والمودة. لا أذكر أنّنا كنّا نقفل باب بيتنا بالمفتاح، أو نقيّد الدراجات الهوائية بالجنازير والأقفال لحمايتها، أو نضع حراساً في الشوارع والطرقات إلّا بعد انطلاق الثورة.

أذكر السنة الماضيّة أيام مرض والدي، توجّه هو وأمّي إلى المستشفى يرافقهم جارنا أبو خالد، وزوجه، وأبو سعيد ؛ من أجل إجراء عملٍ جراحيّ للقلب في مدينة دمشق، التي تبعد أكثر من مائة كيلو متر عن مدينة بصرى. تقطع عدّة بلدات وقرى، وبين كلّ قريةٍ وأخرى طرقٌ تكاد تخلو الأراضي على جانبيها من السكان، ومع ذلك لم يكن المسافر ليلاً يشعر بأدنى درجةٍ من الخوف؛ فأينما حللت تكون بين أهلك وناسك، في جوٍّ من الألفة منقطع النظير.

غاب والداي عن المنزل خمسة أيّام، كنّا نجتمع فيها ونتسامر مع أبناء جيراننا. الأبواب مفتوحة على بعضها كما القلوب، والغرف دافئة بالمحبّة والتآلف. لم نشعر بالوحدة في غياب والديّ؛ فالجيران لم يتركونا لوحدنا.

جلسنا في ساحة الدار تحت ضوء القمر، نتبادل الأحاديث والحكايات، نضحك حتى تسيل دموعنا. كانت ضحكة حسام مميّزة تشبه قرع الجرس، وإذا انفلت بالضحك يضع يديه على بطنه ويتمايل.

إحدى المواقف التي عششت في ذاكرتي: عندما أردنا قطف العنب، وكانت عريشة العنب في منزلنا مرتفعة لا تصل إليها اليد. مع أن قامتي أصبحت طويلة بعض الشيء، بيد أن مائة وخمسة وستين سنتيمتراً لم تكن كافية للوصول إلى العناقيد الحمراء. تقدّم حسام مزهواً بنفسه وهو يقول : كلّ قصيرٍ في الأرض فجلة، وكلّ طويلٍ ـ مشيراً إلى نفسه ـ في السماء نجمة. لكن المائة وخمسة وثمانين سنتمتراً لم تكن كافية أيضاً.

خجل حسام وحكّ رأسه كما يفعل عادةً عندما يخجل. أسرعنا لإحضار السلم، صعدت أنا وأمسكت إحدى الأغصان، مددت يدي إلى عنقودٍ كبير، كان حسام يؤرجح السلم ويضحك. صرخت: حسام!.. أمسك السلم جيداً.. أكاد أسقط!.. كفاك مزاحاً. مال السلم وسقط، وبقيت متعلّقاً بيدٍ واحدة أتأرجح إلى اليمين واليسار، بينما الجميع يضحكون.

مجد

الجمعة١٣/ ٥/ ٢٠١١ م

هدوءٌ يسود جوّ المدينة، لا حركة في الشوارع كما هو المعتاد في هذا الوقت من النهار. اعتدت أن أغتسل غسل الجمعة، وأتوجّه إلى مسجد الإمام الحسين، في الحي الأوسط، لأداء الصلاة. لكنّني جلست مع عائلتي مُرغماً بعد أن منعتنني والدتي من الخروج. دفعها خوفها عليّ لاتخاذ هذا القرار، الحق معها؛ فالوضع لا يطمئن، ولا أحد يعلم إلى أين ستأخذنا المظاهرات التي تجوب الشوارع بعد الخروج من المساجد.

كلّ أسبوعٍ يحمل شعاراً جديداً ومطالب جديدة، بدءاً من جمعة الكرامة التي خرج فيها عدد من المتظاهرين في محافظة درعا، على إثر حادثة اعتقال عدد من الشبان الصغار، وشجارٍ بين الأهالي ورجال الأمن.

جلست يومها وحسام نصغي لنقاشٍ حاد دار بين والدي ووالده حول حقيقة ما يحصل:

ـ هؤلاء الأولاد تعرضوا للاعتقال، ورفض رجال الأمن وساطة وجهاء درعا، وتلفظوا بكلامٍ مسيءٍ بحق أمهاتهم، هذا لا يجوز يا أبا علي، يجب أن نضع حدّاً لتماديهم.

ـ هوِّن عليك يا أبا خالد ولا تنفعل، سمعت أنّهم كتبوا شعاراتٍ

على جدران المدارس، وهذا الفعل وراءه أمرٌ كبيرٌ وخطير، ومن شأنه زعزعة أمن البلد.

ـ ولكنّهم مجرّد أولاد!...

ـ هم سلعة بيد الكبار يا أبا خالد، لا يعقل أنهم قاموا بذلك من تلقاء أنفسهم.

ـ هذا هراء يا أخي.

ـ يا أبا خالد.. في البداية جمعة الكرامة، وأنت تعلم أن ولدي مجداً كان من أوائل الذين خرجوا وهتفوا لأجل الكرامة باعتبارها مطلب حقٍّ، وأنت تعلم أن السيد الرئيس بشار الأسد عزل كل متورط في أحداث الشغب في درعا، واجتمع مع وجهاء درعا واستمع إلى مطالبهم. ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!.. ثمّ حدث انفلات أمني وهجم البعض على المراكز الأمنيّة.

قُرع الباب ودخل جارنا أبو سعيد.

- على رسلكم.. صوت صياحكم واصل إلى الشارع.. بخصوص ما يحصل سمعت من ضابطٍ في الشرطة يقول: بأنّ نشاط المهربين هذه الفترة ـ وتعرّض ضابطٍ لعمليّة طعن ـ أدى إلى استنفار، وإلقاء القبض على عددٍ من المشتبه بهم، ومن ضمنهم شباب زعران كتبوا عباراتٍ مسيئة على جدران المدارس.

- هؤلاء ليسوا زعران يا أبا سعيد!...

- بل زعران

- لا تكرر هذه الكلمة على لسانك!

- يا أخي، لماذا كلّ هذا الانفعال؟! حصل ما حصل واختلط الحابل بالنابل، وكلّ يوم نسمع قصةً جديدة. لم نعد نعرف الصحيح من الملفّق. الجهات المعنيّة استجابت للمطالب، وأظنّ أن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة، تكفي لردِّ كرامتنا، والعودة إلى حياتنا الطبيعيّة.

- يا أبا علي، ما يخطط له هؤلاء أكبر مما تعرفه أنت وغيرك. هذه شرارة ثورة، وهذه حلقة جديدة في سلسلة الربيع العربي، أقصد الخريف العربي، الذي أشعلت عواصفه أمريكا وإسرائيل، وبعض الحكومات العربية المتواطئة، وكل من يسعى لدمار بلادنا. هدفهم إثارة الفوضى والقضاء على المقاومة، ثمّ تعيين حاكم يطبّع مع الكيان الغاصب. يجب أن لا يقودنا الغضب والهيجان، يجب أن لا تجرنا العاطفة والانفعالات، ما هكذا تُساق الإبل يا أخي!.. انظر إلى مصر، بل انظر إلى ليبيا والدمار الذي حلّ بها: خرابٌ في البنى التحتيّة، فصائل متحاربة وخسائر اقتصادية. أيّ ربيع هذا الذي يتحدثون عنه؟! إنّها فتنةٌ وخرابٌ كبير، ويجب علينا أن نأخذ العبرة من جيراننا.

- وهل برأيك السكوت والخنوع للتجاوزات التي يقوم بها رجال الأمن هو الحل؟! نحن مجرد قطيعٍ يُساق بالعصا، اعتاد على الضرب، بل لم يعُد يشعر به أصلاً، نخاف من انتقاد رجل أمن.

- بكره بيسحبوك ع بيت خالتك، علّقَ حسام.

- الحيطان الها آذان يا ابني، أردفتُ ضاحكاً.

- اسكت أنت وهو وانقلعا من هنا، صاح أبو خالد بعصبيّة.

- اذهب يا مجد وأحضر الشاي لعمك أبي خالد.. هذا ليس وقت مزاحكما، تحدث أبي

- ما الحل يا أبا خالد؟!.. أنت مع الحراك والتظاهر، وأبو علي بالضدِّ، وأنا أرفض بشدّة، وفلان مع وفلان بالضدّ. هذا يريد ثورة، والآخر حراكاً سلمياً، والبعض تسلّح في الخفاء، البعض مقابل المال الذي أرسل لإثارة البلبلة؛ يهتف ويردد كالببغاء ما يمليه عليه غيره، وهو لا يعي أصلاً ما يقول.

يا رجل، بالله عليك! الجمعة الماضية كانوا يطالبون بإلغاء قانون الطوارق!.. اسمه قانون الطوارئ.. الطوارئ، وأنا مع إلغائه حتى لا يعتقد أبو خالد أنّني أنحاز لجهةٍ دون أخرى. أنا مع ما يخدم بلدي وشعب بلدي.

يهمُّ أبو خالد بالانصراف.

- إلى أين؟.. اشرب الشاي معنا.

- اشربه أنت والفيلسوف أبو سعيد.

- أنا فيلسوف؟!

- ومحلل سياسي وخبير.

- هل تهزأ بي؟!

- لا، ولكن سيندم الجميع، إذا أصريتم على مواقفكم هذه.

- لكي لا يندم الجميع يا جاري العزيز، علينا أن نتصرف بوعيٍّ وعقلانيّة، وأن لا نسكب الزيت فوق النار.

- تصبحون على خير.

- كنتُ أجلس صامتاً أستمع للنقاش الأقرب لجدالٍ لا ينتهي. لم أستطع أن أنحاز لواحدٍ منهم. لمست في كلامهم جميعاً شيئاً من الحق، لكن أسلوب التعاطي مع الوضع هو المشكلة.

أصبحتُ أسمع كلّ يومٍ كلماتٍ أقرب للشتائم لكلّ من يرفض الخروج في المظاهرات، وآخرها حسام.. حسام صديقي المقرّب، ولا أبالغ إذا قلت الوحيد؛ فقد احتلّ مساحةً كبيرةً في قلبي، ولا أشعر برغبةٍ بعقد صداقة مع أحد غير حسام. كان كل واحد بالنسبة للآخر ظلّه، بل لا أبالغ لو قلت كان جزءاً منّي هو حسام. البارحة نعتني بالجبان، وهو أكثر شخص يعرف أنّني لستُ جباناً. لو أنّ العالم كلّه اتفق على مناداتي بالجبان لما اهتممت بذلك. لكن حسام!.. لا، هذا أقرب للمستحيل.

كيف نسي حسام ذات ليلة، الساعات التي قضيناها معاً، عندما ضعنا أنا وهو في الحي القديم. بصرى مقسّمة إلى أحياء مسمّاة بأسماءٍ مختلفة، وأبرزها الأحياء التي سميّت بأسماء الجهات الأربع، ويعرف ساكنوها بأسماء الأحياء أو الحارات، فيقال: فلان من الحارة الشرقيّة، أو الغربيّة، أو يسكن في الحارة الشماليّة، أو القبليّة (الجنوبيّة)، وحارة الجهير، حارة مبرك الناقة والحارة الوسطى أو براك حمزة.

كانت آثار مدينة بصرى تتمركز في القسم الشمالي والشرقي، بينما

تعدّ الحارة الوسطى والقبليّة حديثة البناء. لم أكن قد تعرّفت بعد على هذه الحارات عندما كان عمري ثماني سنوات، وكنت قد خطّطتُ أنا وحسام للّحاق بوالديّ ووالديه الذين رفضوا اصطحابنا لحضور حفل زفاف أحد الشبّان. كان من عادة أهل العريس أن يوجهوا دعوة لكل الأهل والجيران والمعارف، فتكون الاحتفالات كبيرة.

لم أحضر عرساً من قبل. كان لديّ فضول كبير للذهاب ومشاهدة برج الإنارة والزينة، التي حدثني عنها أخي الأكبر علي، كان محظوظاً وحضر أكثر من حفل زفاف، وشارك في تقديم المناسف التي يُقدّم فيها المليحي؛ الطعام المفضّل لديّ، وهو عادةً يُحضّر من اللحم المطبوخ باللّبن والبرغل المسلوق، الذي يُهرس ثمّ يُسكب اللّبن فوقه، ويوضع اللّحم فوق المناسف، ثمّ يُضاف السمن الحيواني الحار، فيصدر فرقعةً عند ملامسته للمرق واللحم، وتزيّن الأطباق بحبّات الكبة المقليّة.

خرج الأهل وخرجتُ خلسةً مع حسام خلفهم، لكن لسوء حظّنا جاء جارنا أبو سعيد وأوصلهم بسيارته التي اختفت عن ناظرينا، فقررنا أن نتبع مصدر الصوت القادم من الحفل. وبسبب صغر سننا بدلاً من الاقتراب من مصدر الصوت، ابتعدنا عنه، ودخلنا باب الهوا، مشينا في الشارع القديم الذي يعجُّ بالسيّاح الأجانب، ويا لها من صدمةٍ كبيرةٍ أصابتنا!.. شهق حسام وأخذ يبكي: لقد ضعنا يا مجد!.. انظر!.. وصلنا إلى بلاد الأجانب!.. كيف سنعود إلى بلدنا؟!

أصابني حزنٌ شديد، لكنّني تمالكتُ نفسي وحضنت حسام، وقلت له: لا تخف،

أمسك بيدي، سنبحث عن أحدٍ ما يساعدنا.

خفّت حركة الأجانب، وقاربت الشمس على المغيب. مرّت امرأة عجوز في الشارع، كان مظهرها مخيفاً بعض الشيء، تحمل عصا وظهرها محني، لم نجرؤ على الاقتراب منها. بعد قليل مرّ أبو ليمونة المجنون، ركضت أنا وحسام واختبأنا خلف عمودٍ أثريٍّ كبير كي لا يرانا، راقبناه وهو يمشي بضع خطوات ثمّ يدور حول نفسه، ويعاود المشي من جديد، ثمّ يدور، ثمّ يتوقف ليعاود المشي والدوران، وهكذا حتى ابتعد، ولا أعلم حتى اللحظة، لماذا كان يُسمّى أبا ليمونة؟ لكنّني تعجبت كيف وصل إلى بلاد الأجانب؟!

لا بدّ وأنّه ضائعٌ مثلنا.

أظلمت السماء، خاف حسام كثيراً، وخفت أنا أيضاً.

ـ مجد!.. أريد أمّي!.. أريد أمّي وأبي!

ـ اهدأ يا حسام، تعال معي نطلب المساعدة.

ـ أنا خائف، الشارع مظلم. تلفّت حسام حوله وأطرافه ترتجف.

لم يكن شارع باب الهوا ذا إنارة كافية كالشارع الرئيس في المدينة، الإنارة صفراء خافتة، جعلته أقرب للشوارع في أفلام الرعب.

أمسكت يد حسام وقلت له: لا تخف، سنتجه إلى أحد البيوت ونقرع الباب.

تساءل حسام: ماذا لو كانوا أشراراً وخطفونا؟

أجبت: كُفَّ عن هذا الكلام ولا تخف.

كنت أمشي خطوة إلى الأمام ويرجعني حسام خطوتين إلى الخلف. المنازل جميعها في الحي قديمة مبنية من الحجارة السوداء الداكنة، وكانت تلك المرّة الأولى التي تطأ فيها أقدامنا هذا الحي، أو بلاد الأجانب كما أسميناه حينها.

وما أطول الطريق! رغم أنه لم يتجاوز المائة متر حتى وصلنا أوّل بيت وقرعت الباب. خرج رجلٌ خمسيني وسألنا: ماذا تفعلان في هذا الوقت خارج البيت؟!

نحن ضائعان يا عم.

بعد حوار سريع مع الرجل، أوصلنا أمام بيت حسام، ورجوناه أن لا يقرع الباب ويخبر أهلنا؛ خوفاً من العقاب.

بعد نقاشٍ ليس بقصير، وافق الرجل بعد أن وعدناه أن لا نعيد هذا التصرّف الخطر ثانيةً.

لحسن حظنا، كان الأهل لا يزالون في الحفل، وبالتالي لن يكتشفوا أمر خروجنا من المنزل دون إذن. لكنّني ليلتها لم أستطع النوم دون أن أخبر والدي بالحقيقة، فقد عودنا منذ الصغر على الصدق وعدم الكذب لأيّ سبب كان.

بقيت حبيس البيت أسبوعاً كاملاً، عقاباً لي على خروجي من المنزل دون إذن. تلك أول مرّة أبتعد فيها عن حسام لمدةٍ طويلة.

جلستُ قرب النافذة أنظر مباشرة نحو النافذة المقابلة لي، حسام يجلس حزيناً متكوّراً على نفسه داخل النافذة العريضة، التي يوضع فيها عادةً نباتات زينة، قارورة ماء، وبعض الأطعمة أحياناً.

ـ حسام، مرحباً.

ـ يلوّح حسام بيده، مرحباً مجد.. اشتقت لك.

يسرع حسام إلى الداخل ويعود حاملاً كأساً من الشاي. أذهب إلى المطبخ أنا أيضاً وأحضّر لنفسي كأساً من الشاي الساخن، وأبدأ بشربه. يضحك حسام.

أحضر ورقة وقلم رصاص. هيه حسام، لا تتحرك، ابق كما أنت.

ـ ماذا تفعل يا مجد؟ يتساءل حسام.

ـ سأرسمك.

لم يكن وجه حسام واضحاً بالنسبة لي حينها، لكنّني كنت أحفظ ملامحه عن ظهر قلب. أردت فعل أيّ شيء لأجعله سعيداً. كنت ألعب وأتسلّى مع إخوتي، لكنّه هو كان وحيداً حزيناً دوني. لم يكن أبوه يسمح له بمغادرة المنزل وزيارة أحد باستثناء منزلنا، وحصراً اللعب معي. كان يخشى عليه من كل شيء. عرفت فيما بعد أن حساماً هو ابنه الوحيد، أمّا خالد فهو ابن زوجته من زوجها المتوفّى أحمد الذي يلتقي في نسبه مع أبي حسام، وبسبب تأخرها في الحمل بعد زواجها من زوجها الثاني، فقد اعتاد الناس مناداته أبا خالد، وخالد الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات حين زواج والدته، اعتاد مناداة زوجها بابا، كان نعم الأب الحنون له. بعد انتظار سبع سنوات رُزق بولده الوحيد حسام.

ـ انظر.. انتهيت.

كان حسام يبدو في الصورة مبتسماً مشرق الوجه، عيناه سعيدتان،

رغم أنّي لم أتبيّن هل كان حقاً سعيداً في الحقيقة أم لا، لكن هكذا أحببت أن يكون.

مظهره وجلوسه في النافذة منطوياً على نفسه آذاني، تخيلته عصفوراً صغيراً يقبع داخل قفص، والقضبان الحديدية في النافذة سجن، أردت أن أحرره ولو في مخيلتي، أو على الورق، وحرصت على تزيين الصورة بإطار من الأزهار المّلونة بدلاً من إطار النافذة المعدني.

- لا أرى شيئاً يا مجد.

- حسناً، أطرقت مليّاً أفكّر كيف بإمكاني أن أرسل له الورقة، لمعت في ذهني فكرة، أحضرت ورقة للتجربة؛ لأنّني خفت أن أجازف بلوحتي الجميلة فلا تصل إلى حسام، صنعت من الورقة شكلاً كنّا نسميه صاروخاً ورقيّاً وأطلقته من نافذتي باتجاه نافذة حسام. طار عشرة أمتار وسقط قبل منتصف المسافة. جربت أكثر من مرة وأطلقت عدّة صواريخ لكنّها لم تصل.

تذكّرت النقيفة التي كان يستخدمها أخي علي لصيد العصافير، وهي مصنوعة من غصن شجرة على شكل رقم سبعة يعلّق بين طرفيه خيط مطاطي متين، وفي منتصف الخيط قطعة دائرية من الجلد يوضع حجر بداخلها ، ويُشدُّ إلى الوراء بإحدى اليدين، بينما تمسك الأخرى بقاعدة النقيفة وتُسدَّد باتجاه الهدف.

أسرعت إلى غرفة علي باحثاً عنها، استغرقت منّي عملية البحث حوالي ربع ساعة.. وأخيراً وجدتها. أحضرت لعبة بلاستيكيّة على شكل

بيضة، كنّا نشتريها لنجد بداخلها ألعاباً صغيرة، أفرغت البيضة، طويت الصورة بدقة حتى أصبح حجمها مناسباً، وضعتها داخل البيضة، ثمّ وضعت البيضة داخل النقيفة وشددت الخيط، أغمضت عيني اليسرى وكانت عيني اليمنى مفتوحة على خطٍّ مستقيم مع منتصف رقم سبعة ونافذة حسام، ثمّ صرخت: حسام، ابتعد!

خلال ثوانٍ، كان حسام يتأمّل صورته ويقبّلها. شكراً لك يا مجد.. إنّها جميلة جداً.

توفي والدي بعد معاناة مرض القلب، لم يكن ألم المرض عضويّاً فقط، كان نفسيّاً أيضاً، بعد التوتر الذي شهدته سورية الحبيبة.

خرجتْ مظاهرة كبيرة، حملتُ العلم السوري وركبتُ دراجتي الناريّة، انتظرتُ حتى صار الحشد في الشارع القريب من منزلي، وانطلقت باتجاهها. وقفت في الصف الأوّل، وهتفنا لأجل الحريّة والكرامة، ثم ما لبثت الشعارات أن تبدّلت، وأخذ بعض الأشخاص يهتفون بإسقاط النظام. هنا وتحت وقع المفاجأة، توقفت جانباً والحيرة تملكتني.. ما الذي يخطط له هؤلاء؟ كنّا نهتف حرية بصوت واحد، ثم ما لبثت جماعة في الصفوف الخلفيّة أن بدلوا الشعارات والمطالب، وتناقلتها الحناجر الهاتفة.

حدثت جلبة، انسحبت جماعات من المظاهرة، واتجه البقية نحو مركز الشرطة ومبنى الأمن العسكري والسياسي، حاوطوا المباني وأخذوا يسبون ويشتمون. صعد رجال الشرطة أعلى المبنى، وأخذوا

بإطلاق الرصاص في الهواء لتفريق المتظاهرين. لكنّهم أصروا على اقتحام المبنى بالعصيِّ، وعاثوا خراباً وتكسيراً في المكان، ثم اقتادوا عدداً من الشرطة إلى الخارج وأخذوا بضربهم.

من الصعب عليّ أن أقف موقف المتفرّج، آذاني مشهد التخريب وإهانة الشرطة، إنّهم أبناء بلدي، دمهم دمي وانتماؤهم انتمائي. إذا كان البعض منهم فاسداً، فهذا ليس مبرراً للعقاب الجماعي وسفك الدماء. نشأت منذ الصغر على حبِّ الخير للجميع ومحبة كل الناس مهما كانت دياناتهم وطوائفهم ، باستثناء حلفاء أمريكا الموالية للكيان الصهيوني؛ فهؤلاء في عقيدتي الراسخة هم ألدّ الخصام.

دخلت بدراجتي بين الحشود، حاولت الوصول إلى الساحة. كان هناك خلاف، قسم من الشبان يريدون حماية الشرطة وإخراجهم دون أيِّ ضرب، وآخرون يريدون ضربهم والتنكيل بهم. ترامى إلى مسمعي صوت أحدهم يصيح: اقتلوا الخونة!.. اقتلوا الخونة!. هاجت الحشود وتناقل الهتاف أصحاب العقول الفارغة الذي ينجرَّون وراء أيِّ شعار دون تفكير.

اقتربت من الفئة التي طالبت بترحيلهم فقط دون أيِّ أذى، وقلت لهم: أنا سأوصل هذين الشرطيين إلى القريّة ـ قرية صغيرة في محافظة السويداء تقع شرقي بصرى الشّام ـ ركب الشرطيان وقبل أن أشغل الدراجة الناريّة، سمعت صوت رصاص، ولم يستطع أحد من الموجودين تحديد مكان وهوية الشخص الذي أطلق النار. الشرطة اتهموا المتظاهرين، والمتظاهرون اتهموا الشرطة.

والبعض شهدوا بأنهم رأوا أشخاصاً يتسللون خفيةً بين الحشود وهم يحملون السلاح، أطلقوا النار ثم انسحبوا. الله وحده يعلم من الذي أطلق الرصاص، وغايته من ذلك.

أُصيب شاب من المتظاهرين في حنجرته، وحدثت غوغاء. ركض الناس في كل اتجاه، استغللت انشغالهم بالمصاب وأسرعت بإخراج الشرطيين.

كان باقي الشرطة قد خرجوا أيضاً بعد أن نالوا من الضرب الكثير، من توجه منهم إلى السويداء نجا؛ أمّا من اتجه غرباً فقد كان بانتظاره حاجز أقامه بعض المسلّحين بين قرية معربة وبصرى الشام.

كان خبر قتل شرطيين على حاجز معربة أمراً مؤسفاً وشرارة من شرارات الفتنة التي فتحت باباً واسعاً لسفك المزيد من الدماء.

لم أعُدْ أرى حساماً كثيراً خلال هذه الفترة. آخر مرة التقيت به يوم تشييع والدي. توارى جسد والدي تحت التراب، جلستُ قرب قبره باكياً لساعات،

جلس حسام بجواري شارد الذهن. كنت بأمس الحاجة أن أضع رأسي على كتفه وأبكي من كل قلبي.

تأملت وجه الأرض وتلمّست التراب بحسرة. أيّها القبر! رفقاً بجسد والدي فقد كان إنساناً رحيماً صابراً وأباً عطوفاً.

فقدُ أبي، أول انكسار لي، وأصعب محنة مررتُ بها في حياتي. لم يشتد

عودي بعد، كان طريّاً نديّاً يتمايل كلّما عصف به الزمن، كيف وقد فقد الجذع المتين المتماسك الذي كان يستند عليه.

لماذا رحلت باكراً يا أبي؟.. لماذا؟!..ألم تعدْني أن تحتفل بي عند نجاحي وحصولي على الشهادة الثانوية؟!.. كيف سأكمل حياتي من بعدك يا سندي؟!

احتضنت ناصية القبر الباردة، وكأنّني أحتضن جسد والدي للمرة الأخيرة وبكيت بحرقة. أحسست بكفٍّ حسام على كتفي :

ـ هيّا يا مجد، يجب أن نرجع حلّ الظلام.

ـ كيف سأترك أبي وأذهب من دونه يا حسام؟!.. لا أستطيع!.. لا أقوى على فراقه!

ـ هيّا يا رجل.. هذا أمر الله، وقدر كل إنسان أن يفارق أهله ويرحل، لا تعترض على مشيئة الله.

ـ لكنّه أبي يا حسام! أبي!

ـ وإن يكن.. هيّا.

مددتُ يدي باتجاه حسام كي يساعدني على الوقوف، وإذا بي أمدها نحو الفراغ، فحسام قد تجاوز باب المقبرة.استندت على الحجر الأبيض الرخامي ونهضت، مشيت ببطء كمن يخرج من معركة طويلة مهزوماً مكسور الجناح.

مرت الأيّام الأولى بعد فقد والدي ثقيلة كئيبة. كنت أمضي معظم الوقت وحيداً أتأمل صورة أبي، وأقرأ القرآن.

افتقدت حساماً كثيراً، حضر في أيّام العزاء ثمّ غاب فجأة، تغيّر حسام كثيراً، وقد راهنت بحياتي أن حساماً لن يتغيّر مهما حصل. هل يا تراني أخطأت؟ كنت قد غفرت له نعته إياي بالجبان؛ لأنّني عارضت فكرة حمل السلاح.

- لست جباناً، لست جباناً! أنا فقط لا أريد تخريب بلدي يا حسام، افهم.

هؤلاء إخوتك في الدين، شركاؤك في الوطن، ونظراؤك في الخلق، بأيّ حقٍّ تحاربهم؟! ولماذا؟! ما تزال الفتنة في بدايتها ويمكننا وأدها قبل أن تضطرم نيرانها؛ حينها ستحرق الأخضر واليابس، ولن ينجو مجرم أو بريء...

نظرت إلى وجهه المتجهّم متوسلاً وقلت: حسام لا تنجر وراء الفتنة، نحن إخوة وأهل وجيران. منذ متى ونحن نتحدث عن المذاهب والطوائف؟! بين ليلة وضحاها انقلبتم رأساً على عقب! يا أخي ما هذا الجنون؟!

كان حسام يجلس على الكرسي في غرفته، مطرقاً برأسه، وأنا أدور حوله كالمجنون، أحاول أن أسحبه من الدوامة التي تكاد تبتلعه.

نطق حسام أخيراً وقد احمرّ وجهه من الحنق: لقد أطلقوا النار على المتظاهرين عند جسر صيدا ونحن متوجهون إلى درعا.

- وأنتم أطلقتم النار على مساكن الضبّاط في صيدا.

- لم نكن نحمل السلاح.

- تحدّث عن نفسك يا حسام، هل قمتَ بتفتيشهم؟!هل تأكدت بنفسك أنه لا يوجد مسلّح واحد بينكم؟! أصدقني القول.

- ولا مسلّح واحد، أنا متأكّد.

- إذن من أطلق النار على المساكن، حتى قاموا بالرد وإصابة المتظاهرين؟! أجبني، لماذا تسكت؟! وعلى فرض أن المظاهرة تخلو من المسلّحين، لكن هناك مسلّحون في الخفاء، يجعلون منكم لعبة بين أيديهم، يحركونكم كيف يشاؤون لتحقيق أهدافهم، وسحبكم إلى مسارات جديدة لم تخططوا أن تسيروا فيها. يا أخي، سورية دولة مقاومة، وحكومتنا ليست عميلة لأمريكا أو متواطئة مع الصهاينة، يكفي أن شعارها الأوّل تحرير فلسطين. يكفي أن أرض سورية لم تدنسها السفارة الإسرائيلية، يكفي أن ترى الدول الاستعماريّة كلّها ضدك لتدرك أنّك على حق.

- هه، شعارات.. ليحرروا فلسطين والجولان إذا كانوا صادقين.

- معركة التحرير لها وقتها يا أخي، ثم حررها أنت ورفاقك. أليس الأولى أن توجه سلاحك إلى صدور الصهاينة المعتدين، بدلاً من توجيهه إلى صدور أبناء بلدك؟! إذا كنتم قادرين على تشكيل جيش يغيّر ويبدل في البلد على حسب زعمك، فأقترح أن تكون الخطوة الأولى باتجاه العدو الخارجي وعندما تحققون الانتصارات ولو تحرير شبر واحد من الجولان، حينها سأقتنع بكم وأنضم إلى صفوفكم؛ أمّا أن أتسلّح لمحاربة أبناء بلدي، فأنا أعتذر منك يا صاحبي، لا أستطيع.

- ترتيب الأولويات والمعارك له خبراء عسكريون.

- خبراء! وهل أصبح لديكم خبراء بهذه السرعة؟!

- لا تهزأ بنا يا مجد، عندما نصبح قوّة عسكريّة ونحرر سورية من الداخل، حينها سنفكّر في تحرير فلسطين.

- تحرر سورية من الداخل! ممن؟!.. من حكومتها وجيشها؟!.. من أبنائها الذين رفضوا التخريب والتدمير وسفك الدماء؟!.. ممن سعى للإصلاح واتهمتموه بالجبن والخيانة؟!.. من الطوائف والأديان التي أحللتم سفك دماء أبنائها.. هل هذه هي معركة التحرير التي تريدونها؟!

- سنحررها من الفاسدين والظالمين. رفع حسام رأسه ورمقني بنظرةٍ قاسية اخترقتني كسهم مسموم وأضاف: والخونة.

آلمتني تلك النظرة المشككة بحبي له ولوطني.

- من لا يقف في صفنا فهو عدو لنا يا مجد.. ماذا ستفعل لو وجهت سلاحي إلى صدرك؟

- سأفعل كما فعل هابيل وأذكرك بقوله لأخيه حين هم بقتله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

- أنت شخص رمادي، أهذه الدرجة تخاف من حكومتك؟!

- أنا لا أخاف إلا من الله؛ ولأنّني أخاف عقاب الله لا أريد أن أكون طرفاً في الفتنة.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٨.

- هناك جبهة للحق وجبهة للباطل عليك أن تختار.

- وهل أنتم جبهة الحق؟!

- أجل.

- قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (اتبعوا سهام العدو؛ فإنها ترشدكم إلى أهل الحق). وإسرائيل وأمريكا أعداء الإنسانيّة أول من بارك ثورتكم المزعومة ضد الحكومة السورية. ثورتكم كلمة حق يراد بها باطل. التاريخ زاخر بحركات مثل حركتكم هذه، حملت شعارات رنانة ظاهرها إصلاح وباطنها مفسدة.

- هل نيتي فاسدة يا مجد؟! بعد ثماني عشرة سنة من الصداقة اكتشفت أنّني إنسان فاسد!

- بل أنت ضحية يا صديقي، ضحية! وتجهل الكثير للأسف.

وقبل أن أتجاوز عتبة الباب، وقف حسام أمامي وفتح ذراعيه ساداً الطريق أمامي وقال: إذا كان لا بد من الحرب والقتال، مع من ستحارب؟ هل ستصرُّ على رماديتك؟

- أعيدها للمرة الألف، لست رماديّاً ولا جباناً، ابتعد عن طريقي!

- لن أبتعد حتى تجيب عن سؤالي.

- إذا فُرضت علينا الحرب، فسأكون في خط الدفاع.

- ضد المجرمين؟

- لا تراوغ يا حسام وابتعد عن طريقي، سأدعو الله أن يهديكم ويهدينا فقط.

- ستبقى تحت راية فاسدة؟

- وهل اخترت الجهة التي ستحارب تحت رايتها؟.. الجيش الحر، أم جند الشام، جبهة النصرة، أو داعش أو أو أو... كل يوم فصيل جديد وجماعات جديدة متطرفة وتكفيرية. من سيحرر البلد ممن؟ ومن سينصر في النهاية؟ ومن سيتولى زمام الأمور وسدة الحكم؟.. هل ترضى جماعة من هؤلاء أن تقودها الأخرى؟!.. بالله عليك يا حسام أيُّ منفعة للبلد ستجلبون؟! انظر إلى سلاحك صنع في أمريكا حاضنة إسرائيل والداعم الأول لها.

- غداً إضراب.

- إضراب، وتكسير للمحلات التجارية المفتوحة، وعقاب للموظفين الذين يسعون لكسب عيشهم.

- هل سمعت بالانشقاقات التي حصلت في صفوف الجيش؟

- أجل سمعت بالضابط الذي اعتقله جماعتك، وهددوه بقتل عائلته؛ فاضطُر أن يترك صفوف الجيش السوري، ثم أُجبر على تصوير مقطع يعلن فيه انشقاقه عن الدولة.

- والعقيد الذي ظهر على الشاشة البارحة!

- هه، تقصد أبا الفداء؟! أم الحلاق المسكين أبا عادل هه هه هه مهزلة، فبركات، وتلفيقات، وكذب.

- تقصد القنوات السورية.

- أقصد الإعلام بشكل عام. يا أخي ماذا تريد بعد؟! لست من

عُشاق وسائل الإعلام، ولا أؤمن بمصداقيتها الحرفية، لكنّني أمتلك وعياً كافياً يجعلني بعيداً عن المصيدة.

- هل رأيت الشهداء الذين شيعتهم مدينة حمص منذ عدّة أيام؟! كان تشييعهم مهيباً ملفوفين بالعلم السوري.

- أجل رأيت العساكر المساكين الذين أُلقي بهم أحياء من أعلى المباني، رأيت آخرين ذبحوا دون رحمة.. لحظة.. قلت: العلم السوري ـ لوّحت بيدي مستهزئاً ـ هذا نفسه علم الانتداب الفرنسي! مع أنّني حزنت كثيراً لما حصل، لكن مشهد العلم أضحكني. تستبدلون علم بلدكم بعلم اختارته لكم فرنسا الدولة الاستعماريّة؟! إلى أين تريد أن تصل في جدالك هذا يا حسام؟!

- إلى إقناعك يا صديقي، وإنقاذك قبل فوات الأوان.

- لا حول ولاقوة إلا بالله! لا حول ولاقوة إلا بالله! ابتعد يا أخي ابتعد.

- ماذا ستفعل؟ استوقفتني نبرة صوته المحبّبة إلى قلبي أكثر من سؤاله. حتى في هذه اللحظات المشحونة بالخلاف لا أستطيع إلا أن أراه أخي وصديقي وجاري، لا أستطيع أن أحمل في قلبي تجاهه إلا المودّة.

استدرت نحوه وقلت: سأبقى بجانبك.

تغيّرت ملامح حسام واغرورقت عيناه بالدموع. لم أستطع أن أتبين سبب الحزن الذي اجتاح وجهه فجأة: هل تأثر بكلامي؟..هل صدقني؟..هل لا زال يثق بمحبتي رغم جدالاتنا الأخيرة غير المنتهية؟

الاحتمالات كثيرة، لكن أتمنى من كل قلبي أن لا تكون تلك الدموع إشارات تنعى صداقتنا.

زينب

بدأت امتحانات الشهادة الثانوية، الجو العام في المدينة هادئ يشوبه القلق والتوتر. الأحداث الأخيرة تصاعدت من مظاهرات واضطرابات إلى قطع للطرق وحواجز مسلّحة، وجماعات معارضة تحارب الجيش والدولة.

سرت في الشارع الرئيس واتجهت إلى المدرسة. كان هناك بعض المجموعات من الشبان المتطوعين الذين قاموا بوضع حواجز في الطرقات؛ خوفاً من أيِّ عمل تخريبي يستهدف المدنيين. منذ أيّام تم خطف رجل من بصرى من قبل مجموعة مسلحة، وبعد عدة أيّام عُثر عليه مقتولاً ومنكّلاً به، على جسده آثار تعذيب، طبعاً هذا الرجل لم يكن إلا سائق حافلة يعمل لأجل كسب قوت عياله. تلك رسالة واضحة أن أهل بصرى وبالتحديد من يدين بالولاء للحكومة مهدد.

أُحرقت سيارات وتم تكسير محالٍّ تجاريّة. بعض الأشخاص تعرضوا للخطف والتعذيب، ما اضطر المؤيدين ـ إذا صح أن نسميهم مؤيدين والطرف الآخر معارضين ـ أن يقوموا بخطف أشخاص ليتم مبادلتهم بالمخطوفين. أحياناً يتم خطف أشخاص أبرياء لا دخل لهم بما يجري، لكن للضرورة أحكام وليس باليد حيلة، لا بد من حجز بعض الذين تربطهم صلة قرابة بالمختطِفين للقيام بعملية المبادلة.

للأسف، كان لا بد من التسلّح للدفاع عن النفس. تمركزت غالبية الجماعات المسلّحة في الحارة الشرقية، وانقسمت بصرى على قسمين: شرق القلعة المعارض، وغرب القلعة المؤيد بغالبيته.

سمعت والدي يتحدث مع عدد من رجال بصرى بشأن الأوضاع. لم أستطع أن أركز في دروسي البارحة والأحداث الأخيرة تشغل بالي.

جلست تحت النافذة أتسمّع. أعجبني كلام أبي سعيد، رغم أن عدداً لا يستهان به من عائلته كان مع المعارضة، أصرّ على موقفه الرافض للتسلّح وتخريب البلد. تساءلت ماذا عساه رجل بمثل سنِّه أن يفعل مع شبّان متمرّدين، أخذتهم العاصفة الهوجاء، ولم يستمعوا لرأي العقلاء أصحاب الرأي والسداد. لست ألوم أبا سعيد وأبا أنور وغيرهم لو التزموا الصمت، أو حتى قطعوا علاقتهم وتعاملهم معنا ـ المؤيدين ـ خشيةً على أنفسهم وعيالهم من بطش المسلّحين، في زمان لم يعُد فيه احترام وتقدير للكبار، في زمان تطاول فيه الصغير على الكبير، والجاهل على العالم.

جلس أكثر من عشرة رجال يحاورون ويناقشون شاباً ليس ذا خبرة ولم يخض غمار الحياة، أو يتفقّه في العلم والدين. تعجبت، كيف يرسلون ـ المعارضة ـ شاباً بهذا العمر؟! وليس انتقاصاً منه، فقد كان محنّكاً جريئاً لكن تنقصه الخبرة، وتعجبت أكثر كيف يجيب دون دليل أو شاهد، فيحلّل ويحرّم حسب أهواء من أرسله، وغرس في دماغه هذه القناعات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

- بني يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]. جميعنا في المدينة مسلمون، لا يحل لنا دم بعضنا البعض، ولا أموالنا تحل لكم ولا أموالكم تحل لنا. (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه). الفترة الأخيرة حصل إطلاق نار، وسقط عدد من الضحايا من الطرفين. لكن أنتم من بغيتم وتجرأتم في البداية، فما كان من الجيش والشعب والحكومة إلّا أن يتحركوا للرد.

- ولكنكم...

- ستقول لي: قُتل منكم وسجن منكم. وهل تتوقع أن تتمرد دون ردٍّ؟!.. هل تتوقع أن تعتدي على جارك وابن بلدك ويقف متفرجاً ويصفق لك؟!.. بدأتم بالسبِّ، والشتم، واللّعن، والتكفير، وحتى هددتم عائلاتٍ كاملة بالطرد من بصرى؛ بحجّة أن أصولهم لبنانيّة. وهل لبنان إلّا جزء من سورية؟! وما هذه الدول المفكّكة إلا تقسيمات الاحتلال. بني عمري تجاوز الثمانين عاماً، وما أعرفه لا تعرفه أنت. عائلتك التي تعتبر من أكبر العائلات في بصرى أصولها من لبنان. هل أحّدثك أكثر عن أصول الجميع؟! لا؛ لأنّ هذه الفرضيّات باطلة. جميعنا عرب لنا أصول، وبيوت، وأراضٍ، وحق في العيش، كما لأيّ إنسان تعب وبنى وعمّر في هذا البلد، ولا يستطيع أيُّ شخص أن يسلب

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٩.

الأرض من أصحابها. أنت تتحدّث وتتهم، لا تُلقِ اللوم إلّا على من أشعل الفتيل في القنبلة، وفجّر الأوضاع وأوصلنا إلى هذا الحال.

- أبناؤكم أيضاً حملوا السلاح، وأطلقوا النار علينا. دعوناهم للقتال إلى جانبنا لكنهم رفضوا. تعرضنا للقتل والاعتقال ولم تقفوا بصفنا.

- نعم صحيح.. في حرب البسوس التي استمرّت أربعين سنة بين بني تغلب وبني بكر: قتل جساسٌ كليباً، ودارت حرب طاحنة ليس بسبب ناقة ، بل لأجل الزعامة، والسيادة، والانتقام، والثأر. كان هناك رجل يدعى الحارث بن عباد اعتزل الحرب التي لا منفعة منها إلا سفك الدماء، وقال مقولته الشهيرة: (هذه حرب لا ناقة لي فيها ولا جمل)، هذا الرجل وقف على الحياد. لكن عندما قتل الزير ابنه جبيراً ظلماً وعدواناً ، وظنّ الحارث أنّه قتله بكليب، فتفاجأ عندما أرسلوا له رأس جبير ورسالة تقول: بل بشسع نعل كليب.

حينها كان لا بد من شهر السلاح.

الاختلاف الجوهري في حرب الزير، وحرب الحارث بن عباد، أنّ حرب الانتقام والبحث عن الزعامة ليس فيها غلبة، لكن حرب الحارث كانت لدفع الظلم وحماية الناس، بعد أن قدم ابنه قرباناً، ولم يستمر في المعركة، بل أنهاها حقناً للدماء ولإعلاء قيمة الصفح والتسامح. خذوا العبرة من التاريخ يا بني. لو كانت حربكم هذه فيها خير وصلاح لحالنا ولبلدنا، لما توانينا عن المشاركة فيها. لقد شاركتُ في حرب النكسة

وحرب تشرين التحريريّة، وأعرف في أمور الحرب والسياسة أكثر منك. هذه الأموال التي تصلكم والأسلحة والمساعدات، انظر إلى الجهة الداعمة وتاريخها وسياستها ومعتقداتها وأهدافها، وستفهم كل المخطط الذي تسعى لتحقيقه في المنطقة. لن أطيل عليك، هذا كل ما عندنا. عودوا إلى حضن الوطن وسنسعى لإخلاء سبيل المساجين والصلح قبل فوات الأوان، وإلّا فإنّنا مضطرون للاستمرار في حمل السلاح دفاعاً عن النفس، وهذا حقٌّ لنا في مثل هذه الحالة، فموقفكم المعادي لكلّ من يرفض الوقوف في صفكم، يحتم علينا ذلك.

انفضَّ الاجتماع، وخرج الشاب من بيتنا يحمل رسالتنا إلى المعارضة، وجلست أحمل كتابي شاردة الذهن. شعرت بأنّني نسيت كلّ شيءٍ درسته، وكم تمنيتُ لو أنّني ركزت في دراستي، كما ركزت في الكلام الذي دار بين الرجال وحفظته كلمةً كلمة.

يا الله! أي مستقبل ينتظرنا؟!

مضت ثماني سنوات على خروجنا من بصرى. أكره كلمة نزوح أو تهجير على اعتبار أنني لا زلت في بلدي سورية. ثمانِ سنوات مضت وأنا أحاول أن أقنع نفسي أنني بخير وكل شيء على ما يرام. إلى اليوم أمشي في شوارع دمشق كالهائم على وجهه. لم أشعر بالانتماء إلى المدينة وأبنيتها العالية وشوارعها المزدحمة، حتى اللحظة ولو للحظةٍ واحدة. روحي لا تألف المدن وجوها، وكيف لابنة الريف أن تحبذ صخب المدينة وكثافة سكانها.

خرجت من بصرى التي أعرفها شبراً شبراً، وأحفظ شوارعها عن ظهر قلب، والعائلات التي تسكنها وحتى الأشخاص. أعرف فلاناً من العائلة الفلانية، والذي لا أعرفه أستطيع أن أُخمّن من أيّ عائلة يكون. الكثافة السكانية ليست مرتفعة كما في المدن الكبرى كدمشق أو حلب. سكان بصرى حوالي ثلاثين ألف نسمة فقط، يعيشون في بيوت رحبة، تحيطها في الغالب أشجار، ويفصل بين كل بيت وآخر فسحة أرض، ممّا يجعل البيوت جميلة مشرقة يدخل النور والدفء، والهواء النقي إلى جميع غرفها، ومن كل الجهات. الشوارع مكتظة من حولي. بدأ عام دراسي جديد. وقفت أتفرج على الطلاب الذين سيكملون دراستهم هذا العام، رأيت طلاب الجامعات يتوجهون إلى جامعاتهم وآخرين إلى معاهدهم. حلم الدراسة الذي ما زال غصّةً في حلقي إلى اليوم. لا سامح الله من أشعل الحرب، فحرقت أحلامنا وسحقتها تحت آلتها الهوجاء، لا سامحهم الله!

مجد

الجو العام هادئ، لا صوت يضفي حياةً ولوناً على السكون المقيت.

جلست على الكرسي الخشبي تحت عريشة العنب، أقلّب كتاب اللغة العربية بنزق. حطت على أنفي ذبابة، فصفعتها بكفّي التي لم تصبها، بل أصابت أنفي وآلمته، عاودتْ ازعاجي عدّة مرات وعكّرت عليّ جلوسي في المكان الذي أحب، أغلقت الكتاب ووضعته جانباً وانشغلت بالذبابة. صممت على قتلها، والتخلص منها ما دامت مصرّة على ازعاجي. ضربة.. اثنتين.. أخيراً سقطتْ على الأرض.

هدأت نفسي الثائرة، وتأمّلت الذبابة بشيء من التساؤل. لقد لقيتي هذا المصير يا عزيزتي جزاء ما اقترفت يداكِ من أذى وإزعاج للآخرين، لو أنّكِ انصرفتِ منذ أول مرة حاولت فيها طردك أما كان ذلك أفضل لي ولكِ؟!

هه، العتب على الذاكرة يا صديقتي. أتعرفين؟ ليت لي ذاكرة مثل ذاكرتكِ لا تحتفظ بالذكريات أكثر من بضع ثوانٍ؛ كي أرتاح وأنسى الأشياء المؤلمة التي تأبى ذاكرتي إلا أن تعيدها وتكررها أمامي مراتٍ ومرات؛ فتقتلني ثم تحييني من جديد؛ لأجرب الألم ألف مرة. أو أنّنا نستطيع فصل الذكريات عن الأماكن! لو أننا نستطيع أن نجردها

ونعرّيها، ثم نكسوها كما نحب ونشتهي من جديد، وهل الأماكن الجميلة إلا الذكريات؟!

أحياناً تسير في شوارع عريضة، وترى أبنية عالية وأبراجاً شاهقة، لكن ذاكرتك حينها لا تتعدى ذاكرة الذبابة، تسير كأنّك لا تراها، أو تراها فلا تتجاوز حدود النظر.

أحياناً ترى تلّةً جرداء، تراباً وحجارة، زاوية في غرفة عاديّة، شارعاً عتيقاً أو حتى مقعد.. مجرّد مقعد يعني لك الكثير. مقعد يبعث فيك الأمل والسعادة والدفء، زاخر بالأحلام، يحتويك بكل أنفاسك، وزفراتك، وآهاتك، وضحكاتك. يختزن مشاعرك في حناياه، فتراه يشاركك الفرح والحزن، ويلقاك إمّا بذراعين مفتوحين متشوقتين لاحتضانك، أو بظهرٍ محنيٍّ كئيب؛ كي يحمل جزءاً مما تحمل في صدرك من ألم. مجرد مقعد دراسي لا بد من مغادرته ذات يوم. تتعاقب عليه الأجيال جيلاً بعد جيل، لكنّك تشير إليه بإصبعك: هذا مقعدي، هنا كنت أجلس. بعض الأشياء نمتلكها، وبعضها الآخر يمتلكنا، وبدلاً من أن تنتمي إليك الأشياء، تصبح أنت المنتمي إليها وهي مجرد جمادات.

المقعد جماد! نعم، شعرت به لأول مرة مجرّد مقعد خشبي بائس، عندما جاء معلّم اللغة العربية الجديد، قبل نهاية الفصل الدراسي بأقل من شهر، كم تمنّيت لو أنّه لم يحضر، وهل كان هناك ضرورة لقدومه أصلاً؟!

أيام وينتهي الفصل!.

فكرت: ربما كان هناك ضرورة.. بل كان هناك ضرورة، فهو أول شخص يعطيني درساً جديداً مختلفاً عمّا تعلّمته في حياتي. لقد وضع حداً لتضخّم قيمة الأشياء عندي، وسمّاها بمسمياتها الحقيقيّة: هذا مقعد، وهذا حسام.

هو لم ينطقها هكذا بحرفيتها، بل بإشارة من إصبعه جعل الموقف يتحدث.

- ما اسمك؟
- اسمي مجد يا أستاذ.
- هل ترى بوضوح يا مجد.
- أجل.
- هنا مكان فارغ، تعال إذا شئت، واجلس هنا أفضل لك.
- لا يا أستاذ، أنا مرتاح.

كنت على وشك أن أحكي له قصتي أنا وحسام، وكيف أنّنا لم نفترق منذ الطفولة، نجلس معاً دائماً، حتى أن الأساتذة والطلاب في المدرسة حفظوا قصتنا. قطع عليّ سلسلة أفكاري صوت حسام: أنا يا أستاذ أريد أن أجلس في الأمام إذا سمحت لي، لا أرى بوضوح من مكاني هذا.

- حقاً!.. لا بأس تعال.

شعرت وكأن صاعقة ضربت رأسي، وأنا أرى حسام يغادر المقعد الأخير، الذي أمضيت سنوات فيه؛ لأجل أن أكون بجانبه.

كيف طاوعه قلبه أن يغادر أكثر مكان يعني لنا، ويربطنا؟! تخلّى ومشى هكذا بكل بساطة، بينما كنتُ على وشك أن أنهار من الصدمة.

لم أستطع التركيز في دروسي، بل لم تكن لديّ رغبة في الدراسة أصلاً. كنت كئيباً، وعادةً عندما أكون متضايقاً، أو أريد أن أتخلص من ثقل همٍّ تنوء بحمله نفسي، ألجأ للرسم. انتصب جدار أمام وجهي شيّده حديثاً خالد. عدد من الحجارة الاسمنتية مصفوفة فوق بعضها، لا أعلم بالضبط الغاية من وضعها. هل هي ساتر في حال حصول اعتداء مثلاً؟ ولماذا وضعه بين بيتنا وبيتهم، ونحن ليس لدينا سلاح؟! أم أنّه حد فاصل، هدفه إيصال رسالةٍ لنا بقطع العلاقات بيننا وبينهم؟ لست أعلم نيتهم بالضبط من تصرّف غريب كهذا. سنوات طويلة، قصص وحكايات، خبز وملح ، والكثير من السهرات ولياليِ السمر. أيام تقاسمنا فيها أفراحنا وأحزاننا، نحن لسنا جيراناً فقط ، بل أهل بيننا وبينهم مصاهرة ونسب ودم. أن تنام صديقاً وتستيقظ لتجد نفسك عدواً، هكذا بدون أيّ مبررات مقنعة!.. هذه هي الأحجية الأصعب في حياتي.

دارت عجلة الزمن في ذهني.. رأيتني وحساماً نتسابق لصعود الدرجات وصولاً إلى سطح بيته، نحمل صحناً وملعقتين لنأخذ حصتنا من السليقة ـ قمح مسلوق نرش فوقه السكر ـ ونقوم بأكله. تجتمع العائلات لسلق القمح في قدورٍ نحاسيّة كبيرة، ثم ينشر على أساطيح المنازل ، وعندما يجف يؤخذ إلى المطحنة ويوضع في آلة تسمى

الجاروشة؛ لتحوله إلى برغل ناعم أو خشن. أمّا الطقس المفضّل لديّ، فكان شوي القمح الأخضر في سنابه لنحصل على الفريكة ـ حبّات القمح الخضراء المشويّة ـ نسارع أنا وحسام وأولاد الجيران للفوز بعدد من السنابل المشويّة، نقوم بفركها بين راحتي اليدين، ثم ننفخ على القشر المشوي ليتطاير، ونلتهم الحبات اللذيذة.

ما أجمل تلك الأيام! لا غل ولا حقد، فقط حياة هانئة مغلّفة بالبساطة والمودّة.

رسمتُ ما دار في مخيلتي؛ علّي أن أهرب من الواقع الجاثم أمامي ببرودته وغرابته. سنابل القمح تنتصب مكان الجدار، طويلةً شامخةً، لكن أعناقها مائلةً بفعل الريح. ارتاحت نفسي، ابتسمت للوحتي الجميلة، ونظرت نحو غرفة حسام حيث انتصب الجدار الجديد، فلم أتمكن من رؤية غرفة ولا نوافذ. أغمضت عينيّ، تراءى لي خالد يحمل شعلة نار، أضرم النيران في القمح فالتهمته بسرعة وضحك بشكلٍ هستيري. فتحت عينيّ بسرعة وتمتمت من بين أسناني المطبقة بقوة: تباً لك يا خالد ولجدارك اللعين!.. تباً لك!

حسام

أصعب شعور يعتري الإنسان هو الحيرة، وخصوصاً عندما تشمُّ رائحة خيانة تنهش داخلك، وأنت تنظر إلى نفسك وتحترق.

كان لا بد من اتخاذ خطوة نحو الأمام، تعبت في الفترة الأخيرة من الدوران حول نفسي، لا أريد أن أبقى عالقاً في دائرة مغلقة، أريد أن أكون صاحب قرار وأتحرر من كلّ شيء يكبّلني.

آسف يا مجد.. آسف جداً يا جاري وصديق طفولتي. يبدو أن حبل المودة بيننا سينقطع. لا صداقة لمن خان، وتخلّى وسط الدرب الصعبة. لقد اخترت الاستكانة والخنوع، وأنا اخترت الحريّة وسأسعى لنيلها، لن أقف متفرجاً وأنا أرى شباناً يُزجون في السجون، وآخرين يقتلون. حتى لو كان في الطرف الآخر أبناء بلدي من جنود ورجال أمن، وحتى مدنيين. لن أكون رمادياً، سأنصر جبهة الحق وأحارب جبهة الباطل مع أخي خالد ورفاقه.

سلوك أخي هذه الفترة تغيّر كثيراً، أصبح أكثر تديناً والتزاماً. لا أنكر أنّني صُدمت وأنا أراه يمزق صور المطربين، والتي علقها بيديه على الجدران منذ مدّة قصيرة، ويكسر جهاز التلفاز ويرمي به بعيداً.

اعتقدت أنه تعارك مع أحدهم، أو أن ذلك ردة فعل على أمرٍ ما أزعجه، وخصوصاً أنّه أصبح عصبيّاً جداً هذه الأيام. لكن الحقيقة التي تبينت لي فيما بعد أنّها صحوة دينيّة، وانقلاب مفاجئ غيّر حياته وحياتنا،

أراه يصلّي كثيراً، وكم أشعر بالراحة والطمأنينة عندما أراقبه وهو على سجادة الصلاة يكثر من الركوع والسجود.

شكله أصبح مختلفاً بلحيته الطويلة وشعره المسدل فوق كتفيه. حتى طريقة لباسه اختلفت. صار يحدثني كثيراً عن الجنة والنار والحوريات والقصور في الجنان، والنعيم الأبدي، فأتحمّس للالتزام الديني والعبادة. لكن عندما يتحدث عن قتل الكفار وسبي النساء يعتريني شعورٌ غريب: مزيج من الخوف والاستهجان لكلامه.

كيف أصبح جيراننا وأصدقاؤنا ـ وأناس كثر نعرفهم، عشنا بينهم ومعهم ـ بين يوم وليلة كفاراً؟! هذه مسألة لا زلت إلى اليوم غير مقتنع بها. أراهم يصلّون ويصومون ويؤدون جميع العبادات. كيف لي أن أكفِّرهم؟! أتذكّر عبارة أبي سعيد عندما لمحت لموضوع التكفير ذات مرّة فأجاب: احذر يا بني من الفتنة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كفّر مسلماً فهو كافر). احذر من الفتنة.

أنا إن حملت السلاح وحاربت فلأجل محاربة الفساد والظلم؛ أمّا موضوع التكفير والسبي، والسلب، والطرد، والذبح، فأعتقد أن درجة إيمان كبيرة موجودة لدى أمثال أخي خالد وراء ذلك، ويصعب على عقلي البدائي استيعابها.

انظمّ أخي خالد إلى تنظيم داعش، أمّا أنا فالتحقت بصفوف الجيش الحر، وبدأت رحلة المعاناة لنيل الحرية.

زينب

انتهت امتحانات الشهادة الثانوية في ظروف صعبة. انتشرت الحواجز في كل مكان: حواجز للجيش على أطراف المدن والقرى، وأخرى من اللجان الشعبية التي تطوّعت للحفاظ على أمن المواطنين وسلامته. يعتصر قلبي كلما رأيت شباناً في ريعان الشباب قد أجبرتهم ظروف الحرب على حمل السلاح. وأيُّ حرب هذه! يتقاتل فيها أبناء الشعب الواحد، والبلد الواحد وتراق الدماء هدراً.

أصبحت شفتاي تلهج بالدعاء والتوسل لربِّ العالمين دائماً؛ لأجل اجتياز هذه المحنة الصعبة. كل يوم يحمل خبراً جديداً، قتل وذبح هنا وهناك: في حمص ودمشق ودرعا ومدن أخرى. مشاهد قاسية تُعرض على شاشة التلفاز لتفجيرات على حواجز الأمن والجيش.. أجساد مقطعة وأخرى متفحّمة. حافلة تُقلُّ شباناً يرتدون اللباس العسكري، جاؤوا من مختلف المحافظات السورية، ومن مختلف الطوائف والأديان، يحملون حقائبهم وأحلامهم وصوراً للأهل والأحبّة، ينطلقون مع نسائم الصباح الأولى؛ للالتحاق بصفوف الجيش السوري، الجيش الذي هو عماد قوتنا وعزتنا وكرامتنا، وسلاحنا الأول في وجه كل طامع ومعتدٍ. الضحكات والأحلام والأجسام الفتيّة استحالت أشلاءً متفحمة. بكيت حتى تورمت عينيّ، ما ذنب هؤلاء المساكين؟!

شاهدت مقطعاً عُرض قبل مشاهد الحافلة المحترقة، لانتحاري يتبنَّى هذا التفجير، ويتحدث عن الجنة وعن الفوز برضا الله، وتكفير الآخرين وواجب قتلهم. كاد عقلي يطير من رأسي لفرط الدهشة، هل اضطلع هذا الرجل على خفايا الصدور؟!.. وهل علم بنوايا هؤلاء الضحايا؟!.. هل انكشف له الحجاب فعلم من هو المؤمن ومن الكافر؟!.. وكيف استطاع أن يجزم بأنهم جميعاً كفّار ويستحقون الموت؟!..هل أطلعه رب العالمين على دفتر الحساب وسجلات الخلق، قبل أن يقوم بمهمته تلك، التي ادّعى أنها بإذن الله وفي سبيل الله؟!.. ألف سؤال وسؤال يحيرني. هل حقاً هؤلاء مسلمون؟!.. وإن كانوا مسلمين، فنحن ماذا؟ هناك فرق شاسع كما بين السماء والأرض بين إسلامنا وإسلامهم؟!.. وإن كانوا دعاةً للإسلام الصحيح كما يقولون، فرسول الإسلام ـ هو أول داعٍ له ـ أمره الله تعالى بقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[1]. ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[2]. وغيرها الكثير من الآيات والأحاديث الكريمة، التي تتحدث عن الرحمة بين المسلمين، وبينهم وبين سائر الخلق.

كنت أحتسي كأساً من الشاي مع عائلتي، وإذا بالمذيع ينقل خبراً عاجلاً عن ذبح شاب، تم عرض فيديو يظهر رجلاً ملثماً يضع رجله على ظهر شاب مسكين مقيد اليدين والرجلين، احتزَّ عنقه ثم رماه في

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

بئر. رأيت جزارين يحتزّون عنق شاة أو بقرة، مع أنني غالباً أتحاشى النظر، لما تسببه هذه المشاهد من ألم لي.

لكن هذا المشهد شديد القسوة حطّم قلبي. نظرت إلى الشاشة غير مصدّقة لما يحدث، شعرت بعينيّ تغادران محاجرهما من هول المشهد.. كيف استطاع أن يحتز رأسه ببطء، وينظر إليه وهو يتلوى ويأن من شدة الألم؟!.. صوت شخيره وأنينه رافقني أياماً وحرمني لذة النوم.. يا الله! ما أقسى قلوب بعض البشر!

كنت أسمع أنباء موت أشخاص لا أعرفهم وأترحم على الجميع، فينظر إليّ أبي مستغرباً، فأقول له: يا أبي، هذا مظلوم أكرمه الله بنيل الشهادة، وتنزلت عليه الرحمة الإلهية، وهذا شهيد حقٍّ شهر سلاحه للدفاع عن هدف نبيل. أمّا هذا فمغرر به خرج ويعتقد أنّه على حق، لكنّه سار في طريق الباطل دون أن يعلم، وهو بحاجة الرحمة أكثر من غيره؛ أمّا هؤلاء الذين يرون أنفسهم وحدهم على حق وكل من يخالفهم كافر وعلى باطل، فهم بأمس الحاجة لطلب الرحمة والغفران؛ لما ينتظرهم من سوء العذاب، فما الضير من طلب الرحمة للجميع يا أبي؟!

لو أن العالم بأكمله يفكر كما تفكرين يا زينب لكانت الدنيا بألف خير.

تطوّعت للعمل في المستشفى الوحيد في بصرى الشّام، بعد قطع الطريق الواصل بينها وبين درعا المحافظة، حيث الخدمات فيها متوفرة بشكل أكبر.

أُحضرت إلى المستشفى امرأة مصابة بطلق ناري في الرأس، فارقت الحياة للتو، لكنّ بطنها يتحرك كموج البحر المتلاطم، الجنين على قيد الحياة. سارعنا لإدخالها إلى غرفة العمليات. لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأطباء والممرضين.

جاء الطبيب الجرّاح مسرعاً، جس نبض المرأة وقال: لقد فارقت الحياة.

صرخت: بطنها يتحرك يا دكتور.

نعم رأيته، بسرعة سنقوم بفتح البطن.

تلك كانت من أصعب اللحظات الإنسانيّة التي مررت بها، بلا تخدير أو تعقيم أو أيِّ شيء. فتح الطبيب بطن المرأة بالمشرط بسرعة، وأخرج الطفل المزرق اللون حاولنا انعاشه، لكنّه تحرك للحظات ثم فارق الحياة. ترددت على مسامعي العبارة التي قالها القنّاص: اصطدت عصفورين بحجر واحد.

حالات كثيرة نُقلت إلى المستشفى لأطفال ورجال ونساء جرحى وموتى بسبب القصف والقنص. من بينهم أطفال مصابين في الرأس.. أيُّ ذنب ارتكب هؤلاء المساكين الأبرياء، حتى يتجرعوا كأس المنية بهذه الوحشيّة؟! قدمنا العلاج والإسعافات الأوليّة لجميع الجرحى والمصابين، حتى أولئك الذين علمنا أنهم يتضامنون مع المسلّحين وينقلون لهم الأخبار والمعلومات. واجبنا الإنساني منعنا من التفريق بين جريح وآخر. حصل خلاف ذات مرة بين أفراد الكادر الطبي حول

استقبال بعض الأشخاص في المستشفى، وفي النهاية تم استقبالهم. رغم اختلاف الآراء، لم ندنس شرف المهنة أبداً.

سنتان من الصمود تحت نيران قذائف الهاون، أستيقظ صباحاً وأمشي حبواً على شرفة المنزل خوفاً من رصاص القنّاصين، أهرول على الدرجات العشر، ثم أدخل بيت عمّي، وأخرج من البوابة الكبيرة؛ لأصبح في حارة بعيدة نسبياً عن القنص.

في الشارع هناك يوجد حاجز مسؤول عنه شابان هما: مجد وسعيد. كنت ألقي تحية الصباح باستحياء وخجل، ثم أسرع الخطا؛ كي أتجاوزهما بسرعة، وما إن تلتقي عيناي بعيني مجد في نظرةٍ خاطفة، حتى يشيح بنظره ويحمرّ خجلاً.

أيامٌ تبتلع أياماً وتتمخّض عن أيام جديدة تشبه سابقاتها. نسخٌ مستنسخة من الوقت المثقل بالأسى، ومرارة الحرب الأهليّة.

كنا ننتظر بشارة نصر تلوح في الأفق. نضمّد جراح قلوبنا بأيدينا المرهقة، ونبتسم وفي الصدر حزن كبير.

الحروب الداخلية أصعب وأقسى أنواع الحروب، لا تدري من أين يأتيك الخطر، وتكاد لا تعرف عدوك من صديقك.

أنهكتنا الحرب وأصوات الرصاص، رائحة الموت والبارود. عدد كبير من قذائف الهاون سقط على منازلنا؛ ما اضطرنا لتركها والتوجه للأماكن الأكثر أماناً.

فرغت بعض البيوت من ساكنيها، عائلات خافت على أنفسها من

الحرب والموت، سافرت خارج البلد، وطلبت اللّجوء السياسي، وخصوصاً إلى دولة السويد السبّاقة لفتح باب الهجرة واستقطاب السوريين الهاربين من الحرب. هم يعتقدون أن الرفاهيّة والمغريات التي تنتظرهم هناك دافعها إنساني بحت.. لا يعلمون ما يُخطط له خلف الكواليس، وأيّ أثمان باهظة سيدفعونها في المقابل.. وأولها فلذات أكبادهم.

البحر.. كان له نصيب في ابتلاع البعض ممن وضع نصب عينيه خيارين أحلاهما مرٌّ. غرق عدد لا يستهان به من القوارب المطاطيّة، تحمل على متنها أضعافاً مضاعفة من الحمولة الممكن حملها، أجساد مكدّسة بجانب بعضها وفوق بعضها؛ طمعاً من أصحاب القوارب في الربح والمال، ومن راكبيها في النجاة واجتياز البحر، والوصول إلى بر الأمان.. وأيُّ أمان؟!

طبعاً هذا إذا لم يعترض طريقهم خفر السواحل ـ شرطة حماية السواحل ـ وهم هنا أمام عدّة احتمالات: الرجوع، وهو حتماً مواجهة خطر الموت والغرق مرّةً ثانية، أو الغرق بعد ضرب القوارب الضعيفة، التي لا تقوى على الصمود أمام أيِّ عملية اعتداء، أو إلقاء القبض عليهم حتى تتم فيما بعد إجراءات الترحيل والعودة إلى بلادهم، أو قبولهم بعد طلب اللجوء السياسي، هذا طبعاً إذا وجد البلد المستضيف منفعة له من بقائهم في أراضيه.

تلك البلاد البعيدة، التي يراها البعض حلماً، لا تعني لي شيئاً ولا

أطمح للعيش فيها، وأنا أرى ما أرى، وأسمع ما أسمع عن قوانين الديمقراطية والإنسانية والتي أسميها من منظوري الشخصي قوانين الانفلات والحريّة فيما يتعلّق بالعلاقات الأسريّة والعلاقات بين الأشخاص، حرية التصرّف بالجسد، وأخذ القرارات المتفرّدة خارج سور الأسرة الآمن، والتي تعتبر أسرة في كثير من الأحيان بالاسم فقط.. فلا أحد له سلطة على أحد، ولا أحد له الحق في محاسبة أحد، وكلٌّ يغنّي على ليلاه. أيّ برودٍ؟! وأيُّ حياةٍ موحشة هذه؟!.. ظاهرها برّاق وباطنها فرقة وإلغاء للحياء والعفّة والغيرة. أمّا لو حاولت أن تعيش بشكل سويٍّ مستقيم، وكافحت لحماية أطفالك من الانغماس في الرذيلة والانحلال، هنا.. تنتفي الديمقراطية والحرية، وتصطدم بقوانين أخرى، فلا تستطيع أن تعيش كما تريد وتحب، وليس لك حق في أن تربي أولادك كما تشاء.

هذه الهجرة هي أحد إنجازات الحرب ومن أشعلها، أضيفت للدمار الكبير، والنكسة الاقتصاديّة، والتربويّة، والعلميّة، ووأد الميزة الفريدة التي حظيت بها سورية ـ الأمان والألفة ـ فلو سافرت من شمال سورية إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها وحيداً في أحلك ساعات الليل، وسلكت أطول دروب السفر؛ لما شعرت بغير الأمان. ولو وصلت إلى قريةٍ نائيةٍ لا تعرف أحداً فيها وضعت؛ فستجد نفسك بين أهلك. ومن النادر جداً جداً أن تسمع بحادث سرقة أو اعتداء، ومن الأندر أن تسمع بجريمة قتل، سمعت بجريمتين فقط خلال آخر عشر

سنوات قبل الأزمة، في حين لا تمرُّ ساعات، بل دقائق قليلة في الدول التي تتغنّى بالديمقراطيّة ـ والحريّة والإنسانيّة كأمريكا ـ دون سرقة أو قتل أو اغتصاب.

أجارنا الله من الحريّة وما تجرّهُ من مصائب!

من الدول التي لجأ لها أنصار الثورة، الذين زمّروا وطبّلوا للثورة والحرب الأهليّة، ثم هربوا طلباً للنجاة والسلامة: تركيا في الشمال والأردن في الجنوب، حيث مخيّم الزعتري، أو معتقل وسجن الزعتري إذا صح التعبير؛ تهرب من الحرب لتقطن خيمة وتصبح رقماً، وليس أيُّ رقم ! مسموح لك فقط أن تكون الرقم صفراً، لا قيمة ولا أهميّة لك، مهمتك الوحيدة أن تقف إلى يمين المؤسسات الأمميّة والإنسانيّة ومن يدعمها لتدعمها أنت دون أن تدري، فتغيثك من رصيد الكرامة والإنسانيّة الذي لديك حتى يفرغ وتفقد كلّ شيء، وتضطر أن تقبل بأيّ شيء.

حزنت جداً على مصير معظم من غادر سورية الحبيبة، وخصوصاً من طلب اللجوء أو قطن في المخيّمات، ولا أنكر أن البعض أجبرتهم الظروف القاسية على ذلك.

أنا هكذا دائماً كما يقول أبي: ألتمس بدل العذر سبعين عذراً لأيّ إنسان مهما كان.

أمّا نحن (الذين ترتفع لدينا عتبة الانتماء، وتتجذر فينا روابط الصلة مع الأرض، ولا ننسلخ عن الماضي والذكريات بسهولة) فباقون، من

الصعب علينا أن نتخلى ونمضي، حتى لو جرعتنا الحرب السمَّ الزعاف. نفضّل الموت بكرامة على جميع الخيارات الأخرى.

أنا اليوم أعيش في مدينة أخرى غير بصرى، أشعر فيها بالغربة. كيف إذا رحلتُ إلى بلدٍ آخر لا سمح الله؟!

مجد

قلّبت الصور على هاتفي الجوّال، أتفحّص وجوهاً غريبة.. كيف وصل هؤلاء إلى سورية؟!.. ما الهدف والدافع الذي ساقهم إلى هنا؟!.

رجال من جنسيّات مختلفة جاؤوا إلى مختلف المدن السورية للجهاد.

يضحك سعيد معلّقاً على إحدى الصور: هؤلاء جاؤوا إلى سورية وهم يعتقدون أنهم في فلسطين. لقد خدعهم من أرسلهم وغرّر بهم.

- لا تضحك يا سعيد، قلبي اعتصر ألماً عندما رأيت صورهم، يا للبؤساء المساكين !.. أيّ مصيرٍ ينتظرهم؟!.. أتمنّى أن يتمكّنوا من الفرار والعودة إلى أهلهم وديارهم.

- أتدري يا مجد؟ سمعت أنهم جاؤوا بأعداد كبيرة للجهاد. لو أنّهم توجهوا هم وأموالهم إلى فلسطين لتحررت مند عقود.

- يا أخي، ليس همهم قتل الصهاينة وتحرير الأراضي المغتصبة.. همهم فقط قتل المسلمين الذين يعتبرونهم كفاراً.

- تقصد أنتم؟

- بل أنت ونحن.

- ولكنّني!...

- أنت كافر يا أخي.. كافر، وتساند الكفّار!.. هه هه هه.

- ضع المزيد من الحطب.. أكاد أتجمّد من البرد.

في تلك الأثناء مرّت زينب ـ فتاة تعمل في المستشفى ـ اعتدت على رؤيتها كل يوم تقريباً. وفي الأيّام التي لا تمرُّ من هذا الشارع أفتقدها، وأسأل عنها خشية أن تكون رصاصة قنّاص أو قذيفة غادرة أصابتها، وأدعو الله أن يسلّمها.

أما اهتمامي بها؛ فلأنّها تركت فرصتها في إكمال تعليمها من أجل التطوّع للعمل في المستشفى وإسعاف الجرحى. كما لم أذهب أنا أيضاً وأكمل تعليمي في دمشق، بل بقيت هنا للدفاع عن المظلومين. كم حاول الأهل إقناعي بالذهاب إلى الجامعة لتحقيق حلمي في دراسة الهندسة، لكنّني رفضت قائلاً: في هذا المكان الجميل، الذي أجلس فيه تحت زرقة السماء متقبّلاً كل الدروس الصعبة التي تعطيني إيّاها الحياة.. تعلمت الكثير وأنتظر الحصول على الشهادة. فتسارع أمّي لتقول: تريد أن تستشهد يا نور عينيّ؟!. لا يطاوعني قلبي على النظر في عينيها المغرورقتين بالدموع، فأهزُّ رأسي صامتاً دون كلام.

الجو عاصف والهواء يدفع المارة بشدّة. أرى زينبَ تمشي بصعوبة تصارع الريح التي تدفعها إلى الخلف، وتمسك بيدها اليمنى مظلةً تقيها من المطر.

راقبتها مشفقاً.. لو أنّها لم تخرج من منزلها في هذا الجو لكان أفضل لها، ولكنّه ليس أفضل بالنسبة للمصابين الذين ينتظرونها في المستشفى. سحبت الريح المظلّة من يدها إلى الخلف فانقلبتْ، وأصبح شكلها مضحكاً. وقفتْ حائرةً تعالج المظلة والمطر يبلل ثيابها.

أسرعت نحوها قائلاً: هل أستطيع المساعدة؟

- نعم، أرجوك!.. لا أعرف ماذا أفعل.

- لا يصح أن تقفي هنا تحت المطر، تعالي. طلبت من سعيد الخروج من الغرفة الصغيرة المسقوفة بلوحٍ حديدي، وجلست زينب على الكرسي. ووقفتُ خارج الغرفة أصلح المظلّة.

- تفضلي أصبحت جاهزة.

شكرتني بخجل وأكملت طريقها. لم أكن من النوع الذي يتقصد النظر إلى النساء، كنت إذا رأيت جمعاً نسائياً في مكانٍ ما أغيّر الطريق خجلاً من المرور أمامهن، أو النظر إليهن، لكنّني تابعت زينب حتى ابتعدت، كانت لديّ رغبة أن تبقى تحت ناظري.. ربما خوفاً عليها.

كانت ترتدي معطفاً فضفاضاً بلون أسود يستر كامل جسمها، وتضع حجاباً طويلاً بلونٍ أخضر، ووشاحاً من الصوف الأخضر الغامق والأسود، بشرتها قمحيّة صافية، وعيناها سوداوان واسعتان، دائمة النظر إلى الأسفل، خطواتها خفيفة وكأنّ قدميها لا تلمسان الأرض،

ليحفظكِ الله يا زينب!.. ليحفظكِ الله!

حفظت الوقت الذي تخرج به زينب، وكذلك الذي ترجع به إلى بيتها. وكلّما مرّت أدعو الله من كلّ قلبي أن يحفظها ويسلمها. هي من النوع الأغلى في هذا الزمن.. خجولة، لباسها محتشم ومشيتها فيها حياء وعفّة، لا تتلفت ولا تصدر صوتاً.. بالمختصر.. أعجبتني كثيراً، وبدأت أفكر بها بشكلٍ جدّي.

صار مكوثي في المحرس له طعم آخر، فيه شوق وانتظار للحظات مرور زينب، واجتيازها الحاجز، قبلها كانت ساعات الحراسة ثقيلةً صعبة.

عشت على أمل الفرج والعودة إلى حياتنا السابقة، وأمل رؤية زينب.

مضت أشهر أراها فيها بشكل منتظم ومقتضب، لكنّه يكفي بجعل قلبي يقرع بشدّة ويوشك على مغادرة قفصه واللّحاق بها. بالي صار غير مرتاح، وأنا دائم التفكير بها، تألمت وبعدها صار يؤرّقني، رؤيتها للحظات أصبحت تسبب لي حزناً ولم أعد أشعر باللهجة كالسابق، قلبي ينقبض ولا أدري ما السبب كلما رأيتها مؤخّراً.

حسام

يلازمني شعورٌ دائمٌ بالضياع وعدم الرضا، وكلّما سكنت نفسي وهدأت، تعود للتخبط من جديد.

أيّ بحرٍ هائجٍ رميت مركبي فيه؟!.. فغدا تأخذه الأمواج يميناً وشمالاً دون إرادة.

يا إلهي! أرشدني إلى الدرب الصحيح.

انضممتُ إلى صفوف الجيش الحر، أحارب جنباً إلى جنب مع رفاقي ممن رفعوا شعار الحريّة والكرامة، ووضع حد للفساد. تعاهدنا على الوفاء لأهداف الجيش الحر، والمضيِّ قُدماً حتى تحقيق المراد. كانت تحركاتنا في البداية تقتصر على مظاهرات شبه سلميّة؛ لأنّه غالباً يحدث إطلاق نار، وتقع إصابات ويسقط ضحايا، ولا أعرف الفاعل. ذات مرة كنت متأكداً مما رأيت وسمعت، عندما أقدم شاب في الصفوف الأخيرة من المظاهرة على إطلاق الرصاص، وإصابة عسكري من جيش النظام، فقام رفاقه بالرد، وأصيب عدد من الأشخاص في المظاهرة. تمّ تصوير المظاهرة والضحايا، وإرسال مقطع الفيديو إلى قناة الجزيرة، التي تُبثُّ من قطر، والتي تتضامن مع الحراك المسلّح في سورية. كنت متواجداً في موقع الحدث، لكن ما رأيته على شاشة التلفاز منافٍ للحقيقة.

أردت للثورة وأهدافها أن تتكلل بالنجاح والنصر، لكن ليس بطريقة الكذب والتلفيق.. انزعجت ليلتها ولم أستطع النوم.

كان هناك مسلحون في المظاهرة، وأطلقوا الرصاص الحي، ولم يكن العدد يتجاوز العشرات، وليس كما ظهر على الشاشة أنّها بالآلاف. تمّ إشعال بعض الإطارات على أسطح المنازل، على أنّها أماكن سقوط القذائف والصواريخ، التي أطلقها الجيش السوري والأمن نحو المدنيين الآمنين.

شعرت بالخجل مما شاهدت.. تباً! إنهم يسيرون في طريقٍ منحرف.. من يكذب يفعل أيَّ شيء، فأساس المفاسد والخطايا الكذب.

قلّبتُ محطات التلفاز، ثمّ توقفت أتابع نشرة الأخبار على القناة السوريّة. رأيتهم يهزأون بمقطع الفيديو الذي عرضته قناة الجزيرة، ويوضحون الحقيقة التي بالفعل كانت عبارة عن عشرات المتظاهرين، وعدد من الإطارات المطاطيّة المشتعلة، ومسلّحون يطلقون النار في الخفاء، ويدّعون أنّها ثورة سلميّة.

يا إلهي!.. هذا سيضعف موقفنا، ويشوّه الأهداف التي نسعى لتحقيقها.

إنّ مسألة إراقة الدماء تؤرقني، وخصوصاً أن عدونا اليوم هو نفسه جارنا وابن بلدنا في الأمس، هو شخص نعرفه وليس غريباً، وهنا يكمن مركز الألم الضاغط في دماغي.

كم تمنيت لو نصل إلى أهدافنا بشكلٍ سلمي، لكن للأسف أُريقت

الدماء، وقطعنا شوطاً في التوغل في المعركة وحملنا السلاح. هجمنا على عدد من النقاط العسكريّة والحواجز الأمنيّة، ومراكز للأمن وثكنات للجيش، قتلنا العناصر الموجودين، وتمّ اعتقال البعض حيث تعرّضوا للضرب والتعذيب بسبب ولائهم للدولة.

تمّ إجبار أحد العساكر على تصوير مقطع يعلن فيه انشقاقه عن الدولة، والتحاقه بالجيش الحر، ومن ثمّ تم إعدامه، لم يكن لي علم بذلك، لكن عندما رأيت المقطع المصوّر استشطت غضباً، وذهبت إلى أحد القادة المسؤولين وطلبت تفسيراً ومبرراً لما يحدث؛ ولأنّني كنت أعترض دائماً على أيِّ إجراء مخلٍّ بالأخلاق وتعاليم الإسلام، فقد تمّ إخفاء الكثير من الأمور عنّي، أو إبعادي عن ساحة الأحداث قدر المستطاع.

كنت نبيهاً ذكيّاً، ولم يكن من الصعب عليَّ معرفة ما يحدث خلف الكواليس. رأيت حُزماً كبيرةً من النقود، وأشخاصاً غير سوريين، كما رأيت أسلحة أمريكية وأخرى بريطانيّة، وأوراق نقديّة باللون الأخضر. خشيت من حدوث مكائد وتدابير خارجيّة تستهدف بلدي. أردت للحراك أن يكون سوريّاً، بعيداً عن أيّ تدخلٍ خارجي قد يصبُّ في مصلحة أعداء الأمّة والإسلام.

حصلَ ما كنت أخشاه.. وبدأت أيدٍ خفيّةٌ في إدارة المعركة وتوجيه الضربات.

أكثر ما كان يغيظني الدعم الغربي لنا، وخصوصاً أمريكا. منذ

متى تسعى أمريكا والدول الاستعماريّة لتحقيق مصالحنا؟!.. هي دائماً تسعى لنهب ثرواتنا وإبقائنا تحت السيطرة.. هي تريدنا ضِعافاً مجزئين متناحرين.

هذا ما كنت دائماً أردده في الاجتماعات مع قادة الجيش الحر. إسرائيل عدوتنا الأولى. لكنّني تفاجأت بالردّ: الحكومة السورية هي عدوتنا الأولى.. إسرائيل فتحت المشافي واستقبلت عدداً من الجرحى للعلاج.

- إسرائيل وقفت بجانبنا؟!.. جنّ جنوني وخرجت من الاجتماع غاضباً.. لا أدري إلى أين أتجه. هل أعود إلى ولائي السابق؟.. أم أستمر في طريقٍ مجهولٍ تشعّبَ فزاد في حيرتي؟!

قررت الهرب فيما بعد ، وسافرت مع أخي خالد نحو الشرق إلى دير الزور؛ لأنضّم إلى صفوف داعش ـ الدولة الإسلامية في العراق والشام ـ فربّما أجد نفسي وطموحاتي هناك.

مجد

صباحٌ خريفيٌّ كئيب.. ليس بسبب طقوس الخريف الجنائزيّة من ذبول واصفرار وتساقط لأوراق الحياة اليابسة؛ بل لتساقط تلك الأوراق النديّة الغضّة بفعل الغدر والقسوة.

الموت نهاية حتميّة للحياة.. آمنت وسلمت وراضٍ بذلك، لكن النهاية التي تسحق البداية في لحظاتها الأولى كيف لنا أن نستسيغها؟!.. كيف للإنسان أن يصبح فجأةً رقيباً وحسيباً، وصاحب سلطة على حياة إنسان آخر، وهبه الله الروح المقدّسة ليعيش؟!.. كيف يتجرأ ويطغى ويتحدى إله الكون، وينهي حياة أخيه الإنسان بدمٍ بارد؟!.. كيف؟!. أتذكر قول رسول الإسلام، نبي الرحمة والهداية: (لهدمُ الكعبة حجراً حجراً أهون على الله من إراقة دم إمرئٍ مسلم). لو أن الكعبة والتي هي بيت الله، وأطهر بقعةٍ في الأرض تُهدم حجراً حجراً، لكان ذلك أهون من قتل إنسان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. تخيّل لو كان لديك خياران: أحدهما هدم الكعبة، والآخر قتل إنسان مسلم، ولا خيار ثالث أمامك، وعليك أن تختار.. فاختر هدم الكعبة..

سبحان الله!.

كيف إذا كان هذا الإنسان طفلاً بريئاً طاهراً على الفطرة السليمة، لم يتلوث بأيّ معصية.. كيف؟!. أي مسوّغ وأيّ مبرر يجيز ذلك؟!. قد

يقول البعض: قُتل رداً على قتل بعض المدنيين من أهالي المسلّحين وأبنائهم، وأقول: هؤلاء دماؤهم في رقاب مسلحيهم.. فلو أنّهم حاربوا بعيداً عن منازل المدنيين الآمنة؛ لما سقطت قذيفة ولا أصابت رصاصة أيَّ مدنيٍّ.

المسلحون للأسف كانوا يتحصنون في منازل بين المدنيين، وينصبون المدافع والراجمات، وينشرون القناصين على أسطح المنازل، وهذه الأفعال جلبت للمدنيين ويلات الحرب، ولم تجنبهم الخطر.

رأيت طفلةً صغيرة ترتدي ثياب المدرسة وتمسك بيد صديقتها، وتتجهان نحو دكّان قريب من المدرسة.خرجتا من الدكّان تحملان قطعاً من الحلوى. فجأة.. سمعت صوت رصاص، سقطت إحدى الطفلتين، لم تدم دهشة الثانية بضع ثوانٍ ثم سقطت بجانبها. تجمّع الناس قرب المدرسة، وتم سحب الطفلتين بمشقةٍ كبيرة بسبب رصاص القنّاص.

مرت ليلة كئيبة، ودّعَ فيها أهل بصرى برعمتين صغيرتين، قتلتهما عقلية وحشيّة وقلوب متحجّرة، تعتقد أنّها بالقتل والانتقام ستحقق النصر.

أصبح المشي في عدد من الشوارع خطراً، بسبب انتشار القنّاصين، حتى هذا الشارع الذي أوكلت لي وسعيد مهمة حراسته. خفّت الحركة والحياة، وأصبح مرور الناس قليلاً جداً.

لاح لي طيف زينب.. تذكرت موعد مرورها المعتاد، أردت أن أصل إليها؛ لأخبرها أن لا تمرَّ وتعرّض حياتها للخطر، لكن القدر كان أسرع منّي. عاجلها برصاصةٍ كانت أسرع من خطواتي المضطربة.

شعرت بالرصاصة تخترق قلبي قبل أن تدخل صدرها.. ركضت إليها.. رأيتها ممدّدة في وسط الشارع. كان القنّاص لا يزال يطلق الرصاص فيصيب الأرض بجانبها.. سمعت صراخاً من أحد المنازل المطلّة على الشارع: ابتعد!..لا تخاطر بحياتك!.. سيصيبك القنّاص إذا اقتربت أكثر!

لم آبه بتحذيرات المرأة. أسرعت إلى زينب أحملها بين ذراعيّ ولا أدري: هل ما زال بها رمق حياة؟ أم أنّ نصيبي أن أحملها إلى عالمٍ آخر، بعيد كل البعد عن عالمي الموحش بدونها؟ ركضت أحملها بضع خطوات.. سمعت بوق سيارة.. فتح صاحبها النافذة وصاح: اصعد بسرعة. جلست في المقعد الخلفي. السائق يستمع إلى الأخبار، وأنا أسند رأس زينب إلى حجري.. الدماء تفور من صدرها، ووجهها شاحب بشدّة. وضعت يدي على الجرح وضغطت لعلّ النزيف يخفّ. كانت أطرافي ترتجف. دمعت عيناي رغماً عنّي، وخاطبتها بصوتٍ خافت: زينب!.. أرجوكِ اصمدي!.. لا تتركيني وحيداً من دونك!.. ابقي من أجلي!.. لم أدرك مقدار محبتها في قلبي، حتى تلك اللحظة. لم أكلمها من قبل، ولم أحاول أن أتقرّب منها، كنت أراقبها من بعيد، وأدعو الله أن يحميها ويحفظها، كل ليلة أسهر مع طيفها وأحدثه عن شوقي لها، ثم أنام على أمل اللقاء.. لحظات قليلة، كانت بالنسبة لي عمري المحسوب من أيام عمري المسحوق تحت آلة الحرب الهوجاء.. لحظات سعادتي اليتيمة أسرقها من بين أنياب الموت والخوف والحزن.

يا الله!.. أنزل لعنتك على من بعثر حياتنا، وسبَّب لنا كل هذا الأذى!

أخرجت منديلاً من جيب قميصي، ومسحت الدماء عن خدها الذي جُرح من سقوطها على الأرض، ثمّ خبأت المنديل في جيب قميصي بجوار قلبي. شعرت ببرودة جمّدت الدم في عروقي.. لا تموتي!.. زينب!.. قرّبتُ وجهي من وجهها، وخرجت الأحرف مرتجفةً من بين شفتي.

خالد

حزيران ٢٠١٣

في الفترة التي سبقت هدايتي، عشتُ حياةً عاديّةً بعيدةً عن تعاليم الإسلام الصحيح. شاء الله تعالى أن أهتدي على يد مجموعةٍ من الشبان، التقيت بهم في الجامعة. عرّفوني على الشيخ أبي جُنادة، وأصبحنا نحن الخمسة نتلقّى دروساً في العقيدة الإسلامية في بيت الشيخ الفاضل.

ضاقت بي الدنيا.. شعرتُ أنّني أنعزل وأنطوي على نفسي، كرهتُ الجوَّ العام، وتصرفات الشبان في مثل سنِّي. أردتُ أن أكون يداً لله في الأرض؛ أضرب بها أعناق الفجرة الكفرة، فأنال بذلك رضا الله، وألتقي الحور العين في قصورٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى في جنان الخلد. وما السبيل إلى ذلك، سوى الجهاد ضد الحكومات الفاسدة الكافرة وأتباعها، فتكون بذلك كلمة الله هي العليا، وتنتشر تعاليم الإسلام وأحكامه، الدين الوحيد الذي يجب أن يبقى على وجه الأرض، ونكمل ما بدأ به السلف الصالح.

اتجهت شمالاً إلى محافظة دير الزور مع جماعةٍ من المؤمنين، والتقينا هناك بإخوانٍ لنا ذوي بأسٍ شديد، قلوبهم كزبر الحديد، لا يخشون في الله لومة لائم، ولا يخافون الأعداء مهما كثر عددهم وعدتهم.

قابلت الأمير أبا البراء وجماعته، ومكثت بينهم. تلقّيت تدريباتٍ

شاقّة، ودروساً دينية شحذت همّتي وقوّت عزيمتي؛ فلم أعُد أفكّر إلّا في سبيل الوصول إلى الحور العين وجنان النعيم.

تم تكليفي بتدريب عدد من الصبية على حمل السلاح، كان عددهم كبيراً، جاؤوا من مناطق مختلفة، وبعضهم جيء بهم بعد دخول جماعتنا إلى مدنهم وقتل ذويهم من الكفّار الموجودين فيها.

أشرفت بنفسي على إعدام عدد من الكفّار، من بينهم نساء سافرات، وألقينا آخرين في حفرة وأضرمنا النار، كي يُصلوا نار الجحيم قبل يوم القيامة، جزاءً لمخالفتهم تعاليم الإسلام والمسلمين. كنت من الرجال المخلصين، ولم تكن تأخذني رأفة بهؤلاء الفاسدين، فنلت بذلك رضا الأمير، واستدعاني ليُثني على سلوكي وأعمالي الجهاديّة. رأيت عنده عدداً من النسوة يرتدين العباءات السوداء ، ويجلسن متكورات على أنفسهن في زاوية الخيمة. قال لي الأمير: اقترب يا خالد، واختر السبية التي تعجبك. ابتهجت وشكرت الأمير، وسارعت لاختيار واحدة. أمسك الأمير يدي ووضعها على رأس الفتاة وقال: كبّر عليها ثلاثاً لتحل لك. ففعلت: الله أكبر..الله أكبر.. الله أكبر. أمسكت يدها وسحبتها إلى خيمتي. قاومتني وحاولت الهرب، لكنّني جلدتها حتى كادت أن يُغمى عليها، وأخبرتها أن تذهب إلى زوجة الأمير في الصباح لتتعلّم أمور دينها. كانت تبكي وتنتحب وتقول: أنا مسلمة!.. أصلّي وأصوم!.. ومخطوبة لابن عمّي!.. ولا أحلّ لك.

قلت لها: بل أنتِ كافرة، ولا تعرفين شيئاً عن الإسلام. ستذهبين

إلى زوجة الأمير. نزعتُ الخاتم من أصبعها وقلت لها: ولا يحلّ لكِ أن تتزوجي برجلٍ كافر.

من الصعب أن تُقنع هؤلاء أنهم على خطأ، هم أشد خطراً على الإسلام من اليهود والنصارى ومن لا يدين بدينٍ سماوي.

بقيت سنة كاملة أنتقل مع جماعتي من دير الزور إلى الرقة ومنها إلى حلب، دخلنا مدناً وقاتلنا فيها قتالاً شديداً. كنّا مضطرين لاستخدام أسلحةٍ ثقيلة، فلا سبيل لقطع دابر الكافرين إلا بالحزم والشدة. أعطيت سلمى لصديقي، وأحضرت سبيّةً نصرانيّة اسمها سارة. خيرتها بين الدخول في دين الإسلام والنجاة وأن تصبح زوجةً لي، أو القتل. فاجأني قرارها: بل الموت.. الموت أشرف وأفضل من الرضوخ لوحش مثلك، لا يفقه في دين الرحمة شيئاً.

صفعتها على وجهها وركلتها على بطنها: أيّتها الفاجرة الكافرة.. لعنة الله عليكِ. صوبت المسدس إلى رأسها، وكانت رصاصة واحدة كفيلة بوضع حدٍّ لتجبّرها وعنادها. استلقت على ظهرها بلا حراك.. انتبهت أنها تمسك بيدها شيئاً ما، اقتربت وفتحت أصابعها، كانت صورةً لطفل صغير لا يتجاوز الخامسة من العمر. تأمّلت الصورة وقلت: جميل يشبه أمّه.. لعنة الله عليكِ وعلى ابنك. رفستها بقدمي ومشيت.

بعض السبايا كنّ للخدمة، وبعضهن لإمتاع المجاهدين. وغالباً ينتهي مصير الكثيرات منهن بالموت بسبب العناد ومحاولة الهرب. أمّا

النوع الذي كان يروق لي من النساء؛ فهنّ المجاهدات اللواتي نذرن أنفسهن للمجاهدين قربةً إلى الله تعالى.

صبيحة العيد جيء بعدد من الأسرى، وتم وضعهم في حفرة. أحضرت عدداً من الأولاد ـ المجاهدين الصغار ـ ليطلقوا النار عليهم. البعض ماتوا وآخرون جرحوا وتم إعادتهم إلى السجن. أثنى الأمير على الأبطال الصغار وحثّهم على الجهاد وعدم الخوف من الأعداء، وكان ذلك السلوك كتحفيز لهم على قتل الكفّار ونزع الخوف والتردد من قلوبهم.

سمعت أحد المجاهدين يتحدث عن فتاة تُدعى خولة جميلة وفاتنة، قال لي: خولة تزوجت عدّة مرّات وتطلّقت، ثم عملت في ملهى ليلي، ظروفها الصعبة أجبرتها على ذلك، ثم تابت ونذرت نفسها للمجاهدين. اذهب إليها.. ستعجبك، غمز بعينه اليسرى وضرب على يدي وقال: هل آخذك إليها؟

قُلتَ لي: خولة؟!.. تزوجت عدّة مرات وتطلقت!.. تركته يتأمّلني بحيرة ومشيتُ نحو خيمتي ساهماً شارد الذهن.

مجد

وصلنا إلى المستشفى، وترجّل فراس صاحب السيارة وفتح الباب بجانبي، مدَّ يده نحوي قال: ناولني إيّاها. حملها بخفة بفعل حجمه الضخم، وركض إلى الداخل بينما لحقت به. كانت درّاجة ناريّة قد وصلت توّاً وترجّل شخصان ـ رجل وامرأة ـ هما والدا زينب. ركضا خلف فراس الذي وضع زينب على النقالة. أسرع بها المسعفون إلى غرفة العمليات.

جلس والدا زينب جوار غرفة العمليات. وفراس أيضاً واقف ينتظر؛ أمّا أنا فقد كنت على وشك الانهيار لشدة خوفي أن تكون زينب قد فارقت الحياة. خرج ممرض وطلب منّا التبرع بالدم، أسرعت إليه وقلت: أنا زمرة دمي (O سلبي). فقال: ممتاز.. تعال معي. شعرتُ بالفرح يغمرني، ما زالت على قيد الحياة، وليس ذلك فحسب، بل سأمنحها دمي ليجري في عروقها ويمنحها الحياة.

نجت زينب والحمد لله، ثمّ بقيت في المستشفى ثلاثة أيّام حتى استقرّ وضعها. الرصاصة اخترقت صدرها من الأمام ولم تصل إلى القلب. عدتُ إلى موقع حراستي منتشياً؛ دمي وهبته لزينب يجري في عروقها.. حمّلته رسائل كثيرة، وبثثت فيه لوعتي وأشواقي لها.

مضى شهر منذ أُصيبت زينب، لم أعد أُطيق صبراً وتحمّلاً، لا بد

وأنّها تعافت، لكن غيابها الطويل شغلني وأقلقني. عدتُ إلى المنزل ذات ليلةٍ مضطرباً، وقد لاحظت أمّي ذلك.

- بُني!.. ما بك؟.. لست على ما يرام

- بصراحة! أجل، أريد أن أتزوج.

- الساعةُ المباركة التي أراك فيها عريساً، تلألأت عينا أمي.

- هل هناك فتاة محدّدة تريدها؟.. أم أخطب لك؟

- نعم يا أمّي.. زينب ابنة أبي عفيف.

- زينب الممرضة؟

- نعم!.. ماذا قلتِ؟

- زينب فتاة مهذّبة وجميلة.. نِعم الاختيار يا بُني.. أتعلم، كانت من ضمن الخيارات التي كنت سأعرضها عليك، لكنّك سبقتني أيّها المحتال!

سالت الدموع من عيني أمّي، قبّلت رأسها وحضنتها، ثمّ همستْ لي: بني.. زينب أُصيبت برصاصةٍ في صدرها.. هل تعلم ذلك؟

- أجل يا أمّي، أنا من أسعفها

- أنت!.. لم تخبرني بذلك!

- أوصلتها إلى المستشفى بسيارة فراس. لا تخافي.. إصابتها ليست خطيرة.. لم تخترق جسمها.

- خاطرت بحياتك ولم تتحدّث!

- لا عليكِ يا أمّي، ليس الأمر ذا أهميّة.

- لكن...

- أمّي!.. أرجوكِ!.. أنتِ تعرفين أنني لا أحبّ التفاخر بشيء أفعله، حتى لا يصيبني الكبر، وأخسر الأجر والثواب.

- حماك الله يا نور عيني أمّك.. حماك الله!

في اليوم التالي، اتجهت أمّي إلى منزل أبي عفيف للتحدّث مع والدة زينب. بينما بقيت في المنزل حبيس غرفتي، أنتظر رجوعها بفارغ الصبر. ضيقٌ مفاجئ أطبق على صدري، وأشفقت على نفسي من الحالة التي أصابتني.. ماذا يحدث لي؟!.. زينب قدري.. منذ أوّل مرّة رأيتها، أحسست بشيء ما يربطنا. أحسست أنّها تنتمي إليّ، وأنّني أنتمي إليها. هي زهرتي التي أراها فأرى مستقبلي أجمل وأبهى.

سمعت عن العشق وحلاوته، وتشوّقت لليوم الذي سيخفق فيه قلبي لنصفي الآخر. لم أمضِ في طريقٍ يُغضب الله عز وجل، رغم حديث بعض الشبان أمامي عن مغامراتهم العاطفيّة، كنت أغضب ولا أشارك في الحديث، أو أغادر المكان فوراً. للحب مفهوم آخر عندي، أطهر وأسمى من العلاقات العابرة.

كنت أمقت الفتيات الجريئات اللواتي يسمحن لأيّ رجل أن يتقرّب منهن ويغازلهن.. لم أفكّر في حياتي أن أغازل فتاة.. حتى أميرة التي خطفت قلوب الكثيرين، رأيتها ذات مرّة ولا أنكر أنني نظرت إليها، جذبني قوامها، ثم أشحت بنظري واستغفرت ربي. يستحيل أن أفكّر بامرأة يعرف جميع رجال المدينة تفاصيل جسمها، حتى لو

كانت فاتنة. ذات مرّة رمت ورقةً أمامي، ونظرت إليّ نظرةً ذات معنى، لكنّني لم أستطع أن أتقبّل هذا السلوك من امرأة. لم ينتبني الفضول لأعرف ماذا كتبت في الورقة. سعيد نبهني لها فقلت: أعرف.. ولا تهمني الورقة ولا صاحبتها.

أحمق.. ضحك والتقط الورقة. لقد كتبت لك رقم جوالها ورسالة تقول: أنتظر اتصالك بفارغ الصبر؛ قالها مقلّداً صوت الفتيات.. خُذْ تحدّث مع أميرة الأميرات هه هه هه.

- دعني منها.. ليس لديّ كلام مع هذا الصنف.
- سأكلّمها بدلاً عنك.
- إيّاك أن تكلّمها باسمي يا سعيد!
- لا تخف.. هذا الصنف اختصاصي.

أخذ سعيد الورقة ودوّن رقم الهاتف، بعد ساعة كان يحدّثها وهو يتمشّى أمامي محاولاً إغاظتي. بينما فكري مشغول بتلك اللؤلؤة الثمينة ـ زينب ـ فتاة أحلامي وشاغلة حواسي. صحيح أنني عشت الحب من طرف واحد واكتويت بنيرانه.. لكنني راضٍ.

لقد تأخّرت أمّي!.. أصابني تعرّقٌ شديد، وارتفعتْ حرارتي. دخلتُ الحمّام ووقفت تحت الماء البارد علّه يطفئ النيران المشتعلة في قلبي. يارب هوّن عليّ.. ما الذي أصابني؟! جففتُ نفسي وارتديتُ ملابسي، وأمّي لم تعُد بعد. نظرت في المرآة، كان وجهي شاحباً، عبست وخاطبتُ نفسي: ما بك يا رجل!.. كلّ تأخيرة وفيها خيرة.. لا بد أنّ

الأمور تجري على ما يرام وإلا لما تأخرت أمّي.. آه يا أمّي!.. كم طال انتظاري!.. أرجوكِ عودي وأثلجي صدري!.. تعالي بسرعة!.. سبحان الله !.. هذه هي عادة النساء عندما يجتمعن!

تمددت على سريري أتخيّل أمّي تجلس قرب زينب تضحكان بخجل، وهي تحدثها عنّي، عن زوجها المستقبلي، عن بيتنا الكبير وأشجاره الكثيفة وغرفه الواسعة، التي ستشهد ليالي الأنس بوجودها بيننا.

قطع سلسلة أفكاري صوت سقوط شيء على الأرض.

نهضت بسرعةٍ وناديت: أمّي!.. هل عدتي؟. هرعت نحو باب المنزل، كان مغلقاً. فتحته ونظرت نحو الشارع.. لكن لا أحد. عدتُ إلى الداخل، وقفتُ قبل خطوات من غرفة أمّي، التي ظهرت أمام الباب تحمل بيدها زجاج مزهريّةٍ مكسورة.

وقفتُ قبالة أمّي التي تجمّدتْ أمام الباب.. نظرة عينيها الحزينتين كفيلة بالإجابة. كانت تفرك يديها تمهيداً لإخباري بما جرى؛ ولأنّني أكره المقدّمات باغتها بصوتٍ جامد: لم توافق؟

- ليس الأمرُ كذلك يا ولدي!

- ماذا إذاً؟

- زينب مخطوبة.. وستتزوج عمّا قريب.

- ستتزوج؟!.. شعرتُ بروحي تغوصُ في أحشائي.. انكمش العالمُ من حولي،

وأطبقَ صدري الذي تخيلته قفصاً ذهبيّاً يستعدُّ لاستقبال خبرٍ مفرح، وضاق عاصراً رئتيَّ وقلبي المحطّم. حاولتُ أن أتمالكَ نفسي.. لم أشأ أن أبدو ضعيفاً أمام أمّي.

- من سعيد الحظ؟

- فراس.

- فراس!.. فراس! هه. انسحبتُ نحو غرفتي.. أغلقتُ الباب وجثوت على ركبتيّ أفكر بصمت، أحاول استيعاب ما يحدث. فراس!.. اختارت فراساً وأنا الذي كنت شبه متيقن بأنّها ستختارني!.. كيف حصلَ ذلك؟!.. أنا الذي حملتها بين ذراعيّ وحدثتها عمّا يجولُ في خاطري من مشاعر وأحسست بأنّها تصغي إليَّ.. شعرت أن قلبها أصغى لنبضات قلبي.. شعرتُ بأنّها انفصلتْ عن العالم بأسرهِ، لكنّها كانت معي بكلّ حواسها.

يا الله!.. كم كنت واهماً لحظتها.. تلك كانت أمنيات من سراب نسجها خيالي.

يا لي من أبله!.. أغرقت نفسي في الأحلام، وبينما أعيش لذّة الحلم والانتظار، اقتنصَ غيري الفرصة، وقطفَ الزهرة الوحيدة التي زينت بها بستاني فأضحى قاحلاً بغتةً.. بكيت قهراً رغماً عنيّ.

ما كان يجب عليّ أن أنتظر كل هذه المدّة!.. كان عليّ أن أتقدّم لخطبتها منذ اللحظة التي خفق فيها قلبي ومال لها.. أنا السبب!.. أنا!.

يا أثمن أمنياتي وأجملها!.. كيف تخليتي عنّي؟!.. كيف؟!.

كنتِ أوّل وجهٍ يُشرق به صباحي، وآخرُ طيفٍ يؤنس وحشتي ليلاً. وبين إشراقة وجهكِ وغياب طيفك.. ما كان لي سوى أن أتعلّق بحبل الأمل الموصول بين الإشراق والغياب.. والآن!.. ماذا بقي لي؟!.. كيف كنت أحمقَ لهذه الدرجة حتى ضيعتكِ؟!.. كيف؟!

بكيت لأرتاح وأغسل صدري من لوثة الهوى.. بكيتُ علّ روحي تغتسل وتتطهر من قيودها.. بكيت لأخرج ما في صدري من ضيقٍ وألم.

مسحت دموعي واندسست تحت اللحاف علّي أن أنام، فصباح الغد لن يكون كسابقه، سأشقُّ درباً جديداً تاركاً لخيبتي فرصة الرحيل.

زينب

خرجتُ صباحاً كعادتي في الساعة الثامنة، لم أكن قد ابتعدت كثيراً عن حارتي.. شعرتُ بصخرةٍ تصطدم بصدري وتطرحني أرضاً.

لم أعُد أستطيع الحراك.. شعرتُ بأصابع تلامس أصابعي أكثر من مرة ثم تفلت.. أحدهم يحاول سحبي، بينما رصاص القنّاص اللعين يحول دون تمكنه من إنقاذي. سمعتُ صراخاً ثم صوت سيارة.. شخص ما يحملني، ثمّ يبدأ بالتحدث إليّ همساً. كان يمسح وجهي ويبكي، لم أستطع أن أفتح عينيّ لأرى من يكون، حاولتُ جاهدةً أن أصرخ من الألم، أو أن أتكلم، لكنّني لم أتمكن. صوت ذاك الغريب شغل حواسي رغم ألمي وضعفي وعجزي عن الحركة. توسّلَ إليّ مرات أن أبقى من أجله.. عبر لي عن مشاعره. وأحسستها صادقة، لكن كيف ؟!..وأين؟!.. ومتى؟!...لم أكن أدري.

فتحت عينيّ على إثر ارتطام رأسي بشيء قاسٍ، ربما كان يحاول إخراجي من السيارة. كان يحملني ويركض مسرعاً، نظرت في وجهه وعرفته فوراً.. فراس ابن أبي مازن المختار ـ شاب يعمل في الإمارات ـ جاء كزيارة إلى سورية منذ حوالي شهرين.

كانت عشرة أيام كافية لأتعافى بشكلٍ كبير. تأملت قلادتي الذهبية المكسورة، حرصت دائماً على العناية بها، فهي هدية من جدتي الغالية

رحمها الله. رصاصهم الغادر طال حتى ذكرياتنا. اعتقدت أنّني أحرس القلادة، لكنها هي التي كانت تحرسني ببركة محبّة جدتي ودعواتها الدائمة لي.

طوال الأيّام العشرة كنت أفكر بفراس. حاولت تذكّر وجهه وهو يحاول انقاذي ويركض باتجاه الإسعاف، يا له من شاب شجاع وشهم!.. بقي واقفاً أمام غرفة العمليّات حتى اطمأن على سلامتي، وأصرّ على إحضار الدواء بنفسه ودفع ثمنه.

كانت ثيابه الجميلة ملطّخة بالدماء، وقبل أن يغادر المستشفى دخل الغرفة وهنأني بالسلامة، ثمّ عاد بعد يومين ليسأل عنّي. كنت أرغب أن يمكث فترة أطول بجانبي.. ناديته بخجل: فراس!.. أشكرك من كلّ قلبي!..

- لا شكر على واجب.
- خاطرت بحياتك من أجلي!.. لقد...
- ماذا؟.. هل تريدين شيئاً؟. اقترب من سريري مصغياً.
- لا، سلامتك.. لكن.. لكنّني.. لقد سمعت كلّ شيء قلته.

توسعت عينا فراس وتوهجتا، وحدّقَ في عينيّ. أردت أن أقول له... وأعتقد بأنّ خجلي واضطرابي أمامه أوصل الرسالة.

دخلت أمّي الغرفة تحمل الهاتف وقالت: خالك يريد أن يطمئن عليك.

استأذن فراس وخرج من الغرفة، وقبل أن يغلق الباب خلفه تعمّد

الوقوف والبحث عن شيء ما في جيبه بينما ينظر إليّ مبتسماً، فابتسمت رغماً عنّي.

أيام مكوثي في البيت خنقتني.. لديّ رغبة في رؤية فارس أحلامي.. هو أجمل وأشجع من أبطال القصص الخياليّة. غداً عندما نتزوج سأُحدّث أولادي عن بطولة والدهم؛ كيف خاطر بحياته لإنقاذ أمهم، ليس ذلك فقط.. بل كان يحبها حباً كبيراً دون أن يقترب منها.. وضعت يدي على فمي وكتمت ضحكة.

مؤكد أنّه سيخطبني قريباً.. لقد توسّلَ لي أن أبقى على قيد الحياة من أجله.. يا الله ما أبهاه!.. اعترافاته وكلماته أسرتني.. أخذتني إلى عوالم أخرى شفافة ، جميلة وصادقة.

حسام

وصلتُ إلى دير الزور، دخلت معسكر داعش كالأبله أنظر حولي، تخيلتني في إحدى المسلسلات أو الأفلام التاريخيّة.

الجو العام غير مريح، لا أدري لماذا أخافني المكان، والتفاصيل، والأشخاص. أحسست بالغربة، وربّما هذا الشعور سببه تواجد بعض الأجانب من جنسيات مختلفة: شيشانيين، وباكستانيين، وسعوديين، وآخرين لم أعرف من أيّ بلاد جاؤوا.

حتى وجود أخي خالد هناك في استقبالي لم يخفف حدّة توتري وقلقي. كان يرتدي لباساً غريباً بلونٍ أسود يصل تحت الركبتين، شعره طويل ولحيتهُ غير مشذّبة. انتبهَ خالد لتوتري، ربّت على كتفي وقال: ما بك لونك مخطوف؟!.. وكأنّك تشاهد فيلم رعب! أجبته: بل أنا فيه.

هل تسخر؟!

لا والله، أقول الحقيقة.

كفاك سخافة، تعال.

أخذني خالد إلى خيمة الأمير، عدد من الرجال يحيطون بها للحراسة.

دخلنا الخيمة وتحدّثَ الأمير إليَّ، كان لكلامهِ سحراً خاصاً، وكلّ عبارة يرفقها بآيةٍ قرآنيّة، ولأوّل مرةٍ أتخيّل القرآن الكريم الذي كنت

آنس بقراءته، وأستشعر معاني الرحمة والمغفرة، كتاباً آخر يتحدثُ عن الجهاد والمجاهدين، والجنة والنار والحور العين، والقتل والقتال. لأوّل مرة أسمع معانيَ جديدةً لآيات كنت أجهلها، هنا كتاب الله يخاطب فئةً معيّنة، ويختصُ بها دونَ غيرها، وكل ما عداها عدوٌّ مستباح الدم، والمال، والعرض.

أصابني الذهول، وشعرت أنّي أسبح في دوامة. اقتربَ الأمير من أخي خالد وقال له: يبدو أن أخاك لا يعرف الكثير عن العقيدة الإسلامية الصحيحة. لكن بإذن الله سيصبح شخصاً آخر عمّا قريب. خذوا أخانا حساماً إلى المجاهدة خولة، لا بد أنّهُ بحاجة للراحة بعد مشقة السفر. أردف ضاحكاً: يبدو عليه البراءة والخجل.

احمرّ وجه خالد وقال: فيما بعد أيّها الأمير.. أخي حسام متعب.

ضحك الأمير وقال: ولهذا السبب نرسله إليها.

شعرتُ كأنّ مخدراً يسري في جسمي، ويصل إلى لساني الذي انعقد من تسارع الأحداث وتزاحمها وتضاربها وغرابتها، تجتمع في آنٍ واحد، وتلقي بثقلها على رأسي. يا إلهي!.. ماذا أفعل هنا ؟!.. وأيّ مكانٍ هذا؟!.. ومن هي خولة؟!.. وكيف أدخل إليها بهذه البساطة؟!.. يا رب، ساعدني!

خرجتُ من عند الأمير كالرجل الآلي يحركني جهاز تحكّم. شعرتُ بأنّي مسلوب الإرادة، ومشيتُ بخطوات مثقلة. شاهدت بعض الأطفال يتدربون بالعصي، وجوههم لا تشبه وجوه الأطفال

التي ألفناها، فيها شيء من القسوة، وبعضها فيها مسحة حزن، وأخرى تتجلّى آيات الضياع فيها. يا للبؤساء الصغار!.. ما الذي يفعلونهُ هنا؟!.. رحمتك يا رب!

وصلت إلى خولة ولم أصل.. فكلي لا يشبه كلي. حين سرت في دربٍ جديد أجد فيه نفسي، أغرقتها في الضياع أكثر. وما أن وقعت عيناي على وجهها حتى صرخت: هذه أنتِ!...

- حسام!.. ماذا تفعل هنا؟!
- أنتِ ماذا تفعلين هنا؟!
- تلعثمت في كلامها: أتيتُ لأجاهد.
- تجاهدين؟!
- أجل، جهاد النكاح.

أردتُ أن أضربها وأبصق في وجهها وأقول لها: أيّتها الحقيرة!.. ألم يكفكِ الرجال الذين استباحوا جسدك؟!.. كان علينا أن نبحث عنكِ ونقتلكِ؛ بسبب العار الذي جلبته لعائلتنا. لكنّني اكتفيت بعبارة مقتضبة: وأنا أيضاً هنا لأجاهد!.. لأجاهد!.. هل سمعتي؟!.. لأجاااااهد!

يا ويلي!.. لطمت وجهي. إذا كانت البداية هكذا! ومع من؟!.. مع ابنة عمّي!

استدرت حول نفسي كالمجنون، وخولة تنظر إليّ باستغراب.

- ماذا حدثَ لك؟!.. هي.. حسام!.. اجلس نتحدّث.

- نتحدث!.. بخصوص ماذا يا محترمة؟! يا بنت الحسب والنسب!. هل تعلمين لو رآكِ خالد ماذا سيفعل؟!.. ها.. سيذبحكِ!

- خالد هنا؟!.. قالتها بصوت يشوبه الخوف.

- أجل، هنا.

كان أخي خالد قد بعث رسائل تهديد لخولة مع كل من توقّع أنّه يعرف مكانها.

خولة ابنة عمّي؛ الشابة اليتيمة الجميلة التي تزوجت وتطلقت مراتٍ عدّة. ثم وجدت نفسها وحيدةً بعد زواج أمها وسفرها إلى السعودية، لم يستقبلها أخوالها ولا أعمامها، بعد خلافهم معها بسبب زيجاتها المتعددة دون مشورتهم ورضاهم، وآخرها زواجها من شاب مسيحي. سارت وحيدةً في درب أوقعها في فخّ الشيطان، وعملت في ملهىً ليلي، ثم انتهى بها المطاف لتتوب على يد شيخ، لا يعلم سوى الله كيف جرجرها إلى معسكرات داعش في الشمال.

- يا مغفّلة!

- أنا مغفّلة أم أنت؟!

- كلانا مغفّل.. معكِ حق.

- هل ستبقى هكذا تدور ؟!.. دوختني!

- ماذا تتوقعين منّي؟!.. أنا أشمئز من أمثالك.

- لماذا أتيت إليّ إذاً؟!

- لأتمسّى بوجهك الجميل!

- وهل تمسّيت؟
- نعم!.. لدرجة أن الدنيا اسودّت من حولي!
- اخرج من هنا لو سمحت.
- سأخرج.. هل تظنين أنني سعيدٌ بالبقاءِ معكِ؟!

خرجتُ من عند خولة مكفهر الوجه. رأيت فتاةً نحيلةً صفراء الوجه، تغسل الثياب، تبدو على وجهها آثار كدمات، وتظهر خصلة شعر شقراء من تحت حجابها. انكسرَ قلبي لمظهرها، أشحتُ بنظري، وناديتُ خالداً بصوتٍ عالٍ لم أصدق أنّه خرج من حنجرتي.

كنتُ متوتراً وفقدتُ السيطرة على نفسي، وكدت أتشاجر مع أخي خالد ليلتها. سألني بفضول: هل رأيت خولة؟

ـ دعني من خولة وغيرها.. لا همَّ لكم سوى القتل والنساء! أريد الخروج من هنا بأسرع وقت.

ـ ماذا!.. هل تعتقد أنك تستطيع الذهاب بهذه البساطة؟!.. سيقتلونك يا أبله! هذا التصرف يُعد خروجاً عن طاعة الأمير، ثمّ إن المعسكر مغلق ومحصّن. ولا تستطيع المغادرة دون ورقة إذن مختومة من الأمير.

ـ يا إلهي!.. هذا ما كان ينقصنا!

ـ أنت في معسكرات داعش. يوجد حاكمٌ شرعي وقُضاة وحرس ونظام ودستور، وليس لعب أطفال. شرحت لك ذلك قبل أن تأتي إلى هنا.. أين كان عقلك؟!

ـ لم تخبرني الحقيقة يا أخي العزيز.. لقد خدعتني!

ـ ماذا!.. خدعتك!

ـ أجل!.. صوَّرت لي كلّ شيء مثالياً، والشريعة الإسلاميّة أساس كل أفعالكم.. لكن لا أرى هنا أيّ شيءٍ يمتُّ للإسلام بصلة.. أفعالٌ غريبةٌ وسلوكٌ متطرّف.. أين عفّة النساء التي أكّدَ عليها الإسلام؟!.. وتلك النسوة يعاشرنَ عشرات الرجال وربّما المئات!.. أينَ رحمة الإسلام؟! والأطفال يُجنّدون للقتلِ والذبح.. أين عصمة دماء المسلمين الذين ينطقون الشهادتين؟! وأنتم لا تقيمون حرمةً لدماء أحد أصلاً.

ـ هذا جهل وضعف إيمان يا حسام!

ـ بل هذه الحقيقة يا أخي!

ـ سيقطع الأمير رأسي ورأسك إذا سمعَ كلامك!

أطرقت برأسي أفكّر بكلام خالد.

ـ انتظر لحظة.. لم تجبني بعد، هل رأيتَ خولة؟.. من تكون؟

ـ لا أعلم.. أول مرة أراها.

ـ ابنة عمّي؟.. لماذا لا ترد؟!.. ابنة عمّي أليس كذلك؟

ـ لا.

ـ بل هي.. أنا أعرفك جيداً يا حسام!.. أنت لا تكذب، بل لا تستطيع أصلاً أن تكذب.. ابنة عمّي ها؟.. أجبني يا حسام!.. تكلّم!

أمسكني خالد من كتفيّ وهزّني بقوّة. أدرت وجهي جانباً كي لا أرى ملامحه الغاضبة وأجبته بصوتٍ بالكاد يُسمع: أجل.

ـ الساقطة!

ـ ساقطة؟!.. هه.. لو كانت امرأة أخرى غير خولة لقلت مجاهدة!.. سبحان الله!

ـ اسكت يا حسام!.. اسكت!.. سأقتلك وأقتلها!

في الأيام التي قضيتها في المعسكر، كدتُ أفقد عقلي، حملتُ السلاحَ رغماً عنّي، لكنّي التزمت الصمت، وحاولت التأقلم مع الوضع المفروض عليّ، دعوت الله في سرّي أن يرشدني إلى الصواب، ويهيئ لي من أمري فرجاً ومخرجاً.

شهدتُ عمليّات اقتحام لأحياء سكنيّة، وقتل للكبار والصغار، عمليّات سبي وخطف وأسر، رأيتُ مشاهد قاسية للتعذيب، ولم أعترض أو أنتقد؛ حتى لا يُفتضح أمري فأُزجّ في السجن بأحسن الأحوال، أو ربما يتم إعدامي. أغرقت وسادتي بدموع الندم والحسرة، يبدو أن شعارات هذه الحرب كانت مجرد حبرٍ على ورق؛ أمّا التطبيق العملي فكان حرقاً لبلدٍ آمن مزدهر، كان يُصنّف قبل بدء الحراك المسلّح من أوائل البلدان التي تنعم بالأمن والأمان على مستوى العالم. وها هو اليوم يُصنّف من أخطر البلدان للعيش والحياة.

أنا مُعارِض.. أجل.. لكن لا أحبّ أن أرى وطني مستباحاً منكسراً. لا أحبّ أبداً أن أراه جريحاً ينزف بهذا الشكل. أريد الإصلاح ومكافحة الفساد والفاسدين، لكن ليس بهذه الفاتورة الكبيرة من دماء الأبرياء.

توجّهتُ نحو السيارات مع بعض المقاتلين. تلك كانت مهمّتي الأولى التي سأذهب فيها إلى منطقةٍ أُخرى، وكانت الوجهة حلب.

بينما كنّا نُحمّل الذخيرة في السيارات، رأيتُ بعض الرجال يسحبون جثة امرأة على الأرض. تحدّث أحدهم: أيّها الأمير.. هذه المرأة كانت تحاول الهرب في الليلة الماضية، ومعها سلاح والكثير من المال.. قتلها أبو ضرار.

التفتُّ إلى الوراء قبل أن أصعد السيارة، رمقني أخي خالد بنظرةٍ حادّة واضعاً إصبعه السبابة على شفتيه المغلقتين. لقد فعلتها يا خالد؟!.. فعلتها؟!

ضاق صدري أو بالأحرى زاد انقباضهُ وضيقه، فمنذ أن وطأت قدماي المعسكر لم أرتح ساعةً واحدة. لم أشعر بالرضا، ولم أشمّ رائحة السكينة ولو للحظات. لكن لا بد من مواصلة هذا الدرب، حتى تحين اللحظة المناسبة للخلاص، عندها سأرجع إلى بصرى، وأكمل دراستي. سأدرس الصحافة فقد كرهت الحرب وتبعاتها وعواقبها.. سأفعل أيّ شيءٍ للدفاع عن الظلم والمظلومين ومحاربة الفساد. سأتجه للكتابة فالقلم أيضاً سلاحٌ فعّال.

وصلنا إلى حلب. توليت مهمة إحضار الذخائر وتجهيز المخازن والسواتر الترابيّة. تقصدتُ البقاء في الصفوف الخلفيّة لعدم إيماني بالقتال مع الدواعش.

تم الهجوم على إحدى الثكنات العسكريّة وقتل عدد من الجنود،

وأسر آخرين. كان الأسرى يتعرضون للضرب طوال طريق العودة. أنزلناهم من السيارات وحققنا معهم. البعض اقتيد إلى السجن، وآخرون اصطفوا أمام حفرةٍ طويلة بانتظار تنفيذ حكم الإعدام. عملية الفرز كانت تتم على حسب الاسم والدين والطائفة، وليس فقط حسب الولاء والانتماء.

كان سلاح منفذ الإعدام يُصوّب نحو رأس الضحيّة، وقبل أن تخرج الرصاصة يصيح بصوتٍ مرتفع: عاشتْ الدولة الإسلاميّة.

فيردد الضحية: عاشت الدولة الإسلاميّة، ثمّ يُنفذ الحكم ويسقط غارقاً بدمائهِ في الحفرة.

احترقَ قلبي، وخارت قواي. تألمتُ بصمت وحبستُ دموعي. دعوتُ الله أن يُثبتني ويساعدني على اجتياز هذه المحنة.

كلّ رصاصة خرجت مزقت روحي قبل أن تُصيب تلك الرؤوس الشابة، زهورٌ جميلة بالكاد تفتحت، لكلّ واحد فيهم حكاية لم تكتمل، وقصة تمّ بترها بوحشيّة. عيونهم كانت تحكي الكثير، أحدهم يمسك الصليب ينادي السيد المسيح وأمّه العذراء دون أن ينطق، وآخر أغمضَ عينيه لعلّه يستذكر وجهاً محبباً، أراد أن يكون آخر ما يراه في هذه الدنيا، بدلاً من رؤية وجوهنا القاسية التي تشبه وجوه الوحوش الضارية، أو وجه أمٍّ أو أب.. قد يكون وجه زوجٍ أو طفل جميلٍ ينتظره بشوق، أو وجه طفلٍ مُتخيَّلٍ لم يُكحل ناظريه برؤيته بعد. وآخر ينظر نحو السماء، وكأنّي به يُشهِدُ أهل السماوات على إراقة دمه وإزهاق روحه.

أمّا الوجه الذي لن أنساه ما حييت، فكان لشابٍّ يضعُ عُصبةً سوداء على رأسه، عيناه واسعتان، ووجهه منير، كان ينظر نحونا بثبات، هزتني تلك النظرة وأرعبتني.

- عاشت الدولة الإسلامية
- قسماً سنمحوها!

زينب

ارتديتُ ثوب زفافي الأبيض. وقفت أمام المرآة. كنتُ آيةً في الجمال. عبارات الإطراء تنهال على مسامعي من الجميع. تقدمت إحداهن نحوي لتهمس لي بكلامٍ قلب الموازين، وطرحني كجثةٍ هامدة، في هذا الوقت الحرج.

منذ لحظات كانت الدنيا ترقص من حولي، وأنا أستمعُ إلى صوت الشيخ وصوت والدي وفراس في غرفة الضيوف. تم عقد قراني، تعالت الزغاريد، وتقدّمَ جميع المدعوين نحوي للمباركة.

اقتربت أم سعيد وقالت: مبارك يا زينب! اعتقدتُ أنّ العريس مجد، سمعتُ من والدتكِ أنّهُ طلب يدكِ في نفس اليوم الذي تقدَّم لكِ فيه فراس.

ـ أجل، لكن لماذا توقعتِ أن أوافق على الاقتران بمجد وليس فراساً؟

ـ هكذا تبادر إلى ذهني، وبصراحة يستحق أن توافقي على الزواج به، وقد جازف بحياته ليسحبك بعيداً عن رصاص القنّاص. لم يجرؤ أحد على الاقتراب سواه.

كنتُ أراقبهُ من النافذة، وصرختُ محذّرةً إيّاه من المجازفة.. رجوته أن يبتعد. لكنّه ركض وحملكِ بين ذراعيه. قلتُ في نفسي حينها سيموت كلاكما، لكن الله أنجاكما بفضله. انتبهت أمُّ سعيد لوجهي الذي تغيّرَ

بسبب كلامها. فأضافت بصوتٍ مرتبك: على كلٍّ لا تهتمي.. كل شيء قسمة ونصيب. فراس شابٌ وسيم ويمتلك المال والجاه، وستعيشين معه معزّزة مكرّمة.

ـ انتظري!.. هل أنتِ متأكدة مما قلتِ؟!

ـ أجل.. كان مجد يحملكِ بين ذراعيه ويركض، حتى جاءت سيارة فراس وأوصلكما إلى المستشفى.

ـ آه، يا لي من بلهاء!

ـ هل قلتِ شيئاً؟

ـ لا.. لا.

انتابني صداعٌ شديد، وطلبتُ من أمّي أن تساعدني كي أصل إلى غرفتي.

خيراً إن شاء الله!.. ما بكِ يا ابنتي؟!

لا شيء يا أمّي، أريد أن أستلقي لبعض الوقت، أشعر بالدوار.

قبّلتني أمّي وخرجتْ، معتقدةً أنّهُ قلق الفتيات بشأن الليلة الأولى.

فراس يقود السيارة.. إذاً مجد هو من كان يحملني في الخلف ويتحدث إليّ.. ثمّ أخرجني فراس عندما وصلنا إلى المستشفى لحظة ارتطام رأسي ففتحتُ عينيّ.

الآن فهمت!.. تلك النظرة المليئة بالاستغراب، عندما قلتُ له لقد سمعتُ كلّ شيء، سمعتك وأنت تتحدّث إليّ، ضحك باستغرابٍ ولم يجبني، لم يتطرّق للحديث عن ما حصل في ذلك اليوم رغم تلميحاتي، كيف أسأت الفهم وقتها، كيف؟!

يا إلهي!.. يا إلهي!

للأخبار والحوادث سرعة انتشار كبيرة، كانتشار النار في الهشيم، إلا في صبيحة ذلك اليوم المشؤوم، فكأنّ الدنيا كانت في سبات، حين أصابتْ الرصاصة صدري، وليتها اخترقتهُ فأراحتني من مشقّة البقاء.

غدارةٌ أيّتها الدنيا!.. كنت أعتقدُ أنكِ تبتسمين لي، بينما كنتِ تغرسين نابكِ في قلبي دون أن أشعر، وها أنا ذا أشعر بالسم يحيلُ سعادتي تعاسة، هكذا ودون سابق إنذار.

نظرتُ إلى نفسي في المرأة بوجهٍ عبوس، ما بكِ يا بلهاء!.. اليوم يوم زفافك.. أنتِ تحبين فراس، سواء أكان هو من أنقذكِ أم لا.. يكفي أن قلبكِ خفق له.. لا تغرقي نفسكِ في تفاصيل قد تدمّر حياتك.. أنتِ تحبين فراساً وكفى!

انهارت قواي، جثوت على ركبتيّ أبكي في نشيجٍ مكتوم، تذكّرتُ وجه مجد الملائكي. كنتُ أراهُ كلّ يومٍ وأنا أمضي نحو المستشفى، يبدو بريئاً بملامحه المتناسقة. تبادلنا نظراتٍ خاطفة. تذكّرتُ ذلك اليوم الماطر، حين أمسكَ المظلّة يصلحها لي، وأنا أتأمّلهُ من داخل غرفة الحراسة، والمطر يقطر من وجهه المبلل. أشفقتُ عليهِ حينها وأحببتُ شهامتهُ وغيرته على سمعتي، حين وقف خارج الغرفة رغم البرد والمطر. تذكرتُ وجودهُ الذي أراحني، وكان سبباً في طمأنينتي اليوميّة. تذكّرتُ صوته وهمساته: (ابقي من أجلي أرجوكِ!..).

بكيتُ بقلبٍ محترق، كأمٍّ تُضيّعُ وليدها الوحيد بسبب غفلتها،

حاولتُ كفكفة دموعي والخروج إلى الناس لأكمل زفافي، لكن قواي خانتني.

أحببتُ ذاك الصوت الصادق، الذي أسرني رغم الألم. أحببتُ فراساً ظانةً إيّاه صاحب ذاك الصوت والكلمات، فكان حبهُ مقروناً بالعبارات الآسرة التي انحفرت في سويداء قلبي. لم يكن فراس إلا تجلّيات الصوت الذي أحببتُ. على حين غرة صار وجه فراس غريباً عنّي.

ضربتُ صدري بقبضة يدي. يا بلهاء ! ماذا تفعلين بنفسكِ؟!.. ماذا سيقولُ الناس؟!.. الجميعُ في الخارج ينتظرون خروجكِ إليهم، كفي عن البكاء!.. ستكونين بخير.. يا رب هوّن يا رب!.. يا رب ارحمني!..

أرجوكِ ابقي من أجلي.. أرجوكِ ابقي من أجلي...

يكفي!.. يكفي!.. وضعتُ أصابعي في أذنيّ وصرخت.. يكفي!.. أرجوك يكفي!..ثمّ غبتُ عن الوعي.

سارعتْ أمّي وبعض النسوة إلى غرفتي. كنتُ ممدّدة بلا حراك. عندما فتحتُ عينيّ كانت أمّي تبكي وتمسح على رأسي.

ـ حمداً لله على سلامتك.. أخفتِنا.. ماذا حصل لكِ؟! انظري إلى وجهك كيف أصبح !.. كان يجب أن تأكلي شيئاً ما.. لا يجوز أن تبقي دون طعام هكذا.

- أمّي!.. أرجوكِ لا تتركيني!

- بسم الله عليكِ يا ابنتي!.. ماذا حصل لكِ؟!.. لماذا كلّ هذا الخوف؟!

- أرجوكِ يا أمّي ابقي بجانبي!.. لا أريد أن أتزوج!

أسرعتْ أمّي لتغلقْ الباب، وعادتْ تضع يدها على فمها. لا تفضحينا! ولا تكرري هذا الكلام ثانيةً! لماذا كلّ هذا الخوف؟!

قرع الباب قطعَ حديثنا: (هيّا يا أم عفيف، الناس في الخارج ينتظرون، وأهل العريس على وشك الوصول).

مسحت أمّي وجهي ، ووضعتْ بعض أحمر الشفاه على شفتيّ الشاحبتين. تكلّمتْ بحزمٍ مقطّبةً حاجبيها: أكبر خطأ دلال البنات!.. أكبر خطأ! سأخرجُ أمامكِ وخلال ثوانٍ الحقي بي.

لكن يا أمّي!

لن أسمع كلمة زائدة، هيّا تحركي!

مجد

كانت الفترة الأولى من خدمتي العسكريّة صعبة وشاقّة للغاية. فقدتُ الكثير من وزني، وحلقتُ شعري فتغيّر شكلي كثيراً حتى بدوت أكبر بعدّة سنوات.

كنتُ أستطيع أن أؤجل خدمة العلم، بحكم أن أخي علياً يخدم في الجيش العربي السوري، وأكمل دراستي في الجامعة، لكنّني شعرتُ أن التفاتتي لمواصلة حياتي الشخصيّة ومستقبلي دون الاكتراث لما يحدث من مؤامرةٍ كونيّةٍ ـ حشّدتْ فيها قوى الاستعمار العالميّة كل الإمكانيات لتدمير وطني ـ خيانة وانعدام ضمير. كيف لي أن أعيش هكذا وبكلّ بساطةٍ؟ ووطني بحاجةٍ ماسةٍ لمن يدافع عنه، وكذا أهلي وناسي الذين فُرضتْ عليهم هذه الحرب، فكان لا بد من ردِّ الاعتداء، والذود عن الحمى.

اعتقدتُ أنّ الأشهر الستّة التي ابتعدتُ فيها عن بصرى كافيةً لأنسى زينب. لكنّني كنتُ مُخطئاً، فما إن عدتُ لزيارتها حتى خفقَ قلبي، وبدأتْ الذكريات تتزاحم واحدةً تلو الأخرى، دون إرادةٍ منّي. مع أنّي حاولتُ إغلاق صندوق الذكريات ورميه بعيداً في عالم النسيان، لكن أبى النسيان أن ينسى، فعاد الجرح نازفاً كأنّه بالأمس.

زينب تزوجتْ.. هي الآن تعيش مع رجلٍ آخر تحت سقفٍ واحد. تمنيتُ لها السعادة لكنّني لم أستطع نسيانها.

نصحني أحد الأصدقاء بالزواج لأقهر الحبّ بحبٍّ آخر على حسب تعبيره.

حسنٌ.. لا بدّ من إكمال مسيرتي في الحياة وتكوين أسرة. في داخلي رغبةٌ للاستقرار، وحاجةٌ لأنيسٍ يونس وحشتي في هذه الدنيا.

حدثتُ أمّي عن رغبتي في الزواج فور وصولي، فاستبشرت لذلك ووعدتني أن تبحث لي عن الفتاة المناسبة. لكن الفترة التي غبتها عن بصرى كانت تُخبئ الكثير من الأحداث، وأهمها حدث جعلني أتراجع عن طلب الأمس، الأمر الذي فاجأ أمّي وحيّرها. لماذا تريد تأجيل الموضوع يا مجد؟! وقد كنت على وشك إخبارك أنّني وجدت لك العروس المناسبة.

أطرقتُ برأسي خجلاً. لم أكن أنا ذاتي أعي ما يحصل لي. احترتُ كيف أُجيبُ أمّي، لكنّها وفّرتْ عليّ الجهد في البحث عن تفسيرٍ منطقيٍّ وقالت: أهي زينب ثانيةً؟

أجل.. زينب ثانيةً عادتْ لتثير الجمر الكامن تحت الرماد. عادت بوجهها الجميل، وحضورها المهيب. رأيتها وأنا راجعٌ إلى البيت مساءً، ترتدي عباءةً سوداء وغطاء رأسٍ أسود. لم يمضِ على زواجها سوى شهرٍ واحد حتى أصبحت أرملة. فقدت زوجها وهي ما تزال عروساً.. رحمه الله!

كانت المرّة الأولى التي يتطوع فيها للذهاب إلى أحد المحارس، حيث باغتهم صاروخ غادر هو ورفاقه الثلاثة، فاستُشهدوا جميعاً.

أخبرتني أمّي حينها باستشهاد أربعة شبان، ومنهم ابن المختار أبي مازن، لكن لم يخطر ببالي أبداً أن يكون فراساً. اعتقدت أنّه أخذ زينب وسافرا معاً إلى الإمارات.

أصبحت خطواتنا بطيئة عندما التقت عيناي بعينيها الحزينتين. لا أدري كم طالتْ نظرة كلٍّ منّا إلى الآخر، حتّى سمعتُ صوتها: السلام عليكم. كانت تلك المرّة الأولى التي تقف فيها لتسلّم عليّ. اعتدتُ على رؤيتها في السابق تمرُّ مسرعةً دون أن تلتفتْ، وكان يعجبني ذلك السلوك ، ولكنّها اليوم توقفت لتسلّم.

- حمداً لله على سلامتك!

- سلمكِ الله.. رحم الله زوجكِ.

- رحمه الله.. شكراً لك. أطرقتْ خجلة وأكملتْ طريقها. كان يبدو عليها التوتر. شعرتُ أن لديها كلاماً أكثر، لكنّها آثرت الانسحاب، وأنا أيضاً كان لديّ سؤالٌ كاد يقتلني، طوال الأشهر الستّة السابقة. تخيلتُ نفسي أمسكُ بكتفيها وأهزها: لماذا رفضتني؟! ووافقتِ على الزواج من فراس! ألأنّهُ ثري؟!.. ماذا كان ينقصني لتفضليه عليّ؟! كلانا طلب يدكِ في نفس اليوم، ما الذي جعل كفتهُ ترجح على كفتي؟!

أصعب شعور أن ينكسر قلبك من شخصٍ تحبه، أن تحبه دون أن يشعر بما تكنُّ له من محبّة، وما تحمل له من مودّة، سامحكِ الله يا زينب!.. سامحكِ الله!

دخلتْ أمّي غرفتي، تحمل صينية عليها كأسان من الشاي. حاولتْ أن تعيد محادثتي بشأن العروس، لكنّني غيرتُ الموضوع.

بُني أصدقني القول!.. منذ أن عرفتَ بأنّ زينب أصبحت أرملة، تغيّرتَ وغيرتَ رأيك بشأن العروس التي طلبتَ منّي خطبتها.. هل أنا على صواب؟! أم أنّ هناك سبباً آخر؟ شغلتَ بالي!

ـ بصراحة!.. أجل.

ـ هل ما زالتْ لديكَ رغبةٌ فيها؟.. لا تنسى أنّها رفضتك في السابق!

سقطتْ كأس الشاي من يدي، وغصصتْ، شعرتُ بوخزةٍ في قلبي. سارعتْ أمّي لمسح الشاي المسكوب على الأرض، ولملمة الزجاج المكسور.

فكرتُ بكلامها.. لقد رفضتني أجل ـ هذه هي الحقيقة ـ فلماذا أُصرّ على التفكير بها؟!.. هل أصبحتْ الدنيا خالية من النساء؟!.. تبّاً لهذا القلب!

عادتْ أمّي تجلس بقربي، وتعتذر عن كلامها. لا عليكِ يا أمّي.. معكِ حق.. يجب أن أصرف النظر عنها.

ـ ذلك أفضل يا بني.. بالمناسبة زارتني في غيابك مرّة.

ـ من؟

ـ تلعثمتْ أمّي وسكتتْ.

ـ من هي التي زارتكِ؟!

ـ زينب.. مجرّد زيارة عاديّة.

شعرتُ أنها تخفي عنّي شيئاً. صارتْ تتحدث عن العروس التي ستخطبها لي. أمسكتُ بكتفيها وقلتُ: لماذا زارتكِ زينب؟!.. ما الخبر؟

ـ لا شيء.. مجرّد زيارة.. قلتُ لك.

ـ هي لم تزركِ من قبل!.. أرجوكِ قولي ما لديكِ! تنهدتْ ومسحتْ على وجهي. امتلأت عيناها بالدموع وقالت: هل تحبها لهذه الدرجة؟!

ـ تكلّمي يا أمّي!

زينب

مع نفحات الصباح الأولى، حملتُ إبريق ماءٍ واتّجهتُ نحو المقبرة، رششت ترب قبر فراس، وقرأتُ ما تيسر من القرآن الكريم. رحمك الله يا فراس! وهنيئاً لك الشهادة. حزنتُ كثيراً على رحيلكَ المبكر، لكن اختار الله لك النهاية الأسعد والأفضل.

كنتُ زوجة مطيعة، رغم أنّي لم أقدم لك الحب. أصاب علاقتنا فتورٌ منذ بدايتها، الأمر الذي حيّركَ وآلمك. كنتُ مصدومة مما حصل، سامحني أرجوك!.. لا ذنب لي ولك بما حدث. حاولتُ أن أجعلك سعيداً، رتبتُ البيت أفضل ترتيب، جهزتُ الطعام في موعده. كلّ شيءٍ على أكمل وجه، إلاّ قلبي لم أستطع أن أقدمه لك.. سامحني! علقتُ الأمل على الأيّام، علّها تغير النفوس، ودعوتُ الله أن يغرس محبتك في قلبي، أن يمحو أيّ تعلق ومشاعر لغيرك؛ كي تصفو حياتنا معاً. لكن الموت خطفكَ فجأة.. سامحني، أرجو من الله أن يعوضك خيراً منّي في جنان النعيم.

عدتُ إلى عملي السابق في المستشفى، أخرج في الصباح الباكر، وأعود مساءً من ذات الطريق المعتاد. ضيقٌ وحزنٌ جعلني أغيّر الطريق، كان موحشاً كئيباً دون ذلك الوجه الملائكي، الذي اعتدتُ رؤيته كلّ صباح. نظرةٌ خاطفةٌ تريحني، فأمضي إلى عملي مشرقة الروح. لم أدرك

حينها أن الراحة التي كنتُ أشعر بها عند رؤية مجد، هي البذرة الأولى للحب، حتى نما وكبر في غيابه. استحضارُ صوته يجعلني رغماً عنّي أفكر به. (أرجوكِ ابقي من أجلي).

ها قد بقيتُ، لكنّه رحل وابتعد. وبعد استشهاد فراس، ومعرفتي بصاحب الصوت الذي لم أحبَّ سواه، أردتُ أن أوصلَ لهُ شكري وامتنان على مساعدتي وإنقاذي، حتى لو كان قدرنا أن لا نجتمع.

ذهبت إلى الخالة أمِّ علي، التي تفاجأتْ عندما رأتني.

- زينب!.. تفضلي يا ابنتي.

جلستُ والخجلُ يكبّلني، لا أدري ما أقول. تذرعتُ بأنّني جئتُ أطمئن عليها بعد سماعي بمرضها مؤخراً، وكانت سعيدة وممتنّة لزيارتي. ثم تجرأتُ وسألتها عن مجد.

ـ أنا ممتنّة من كلّ قلبي لمجد على إنقاذي يوم أصابتني رصاصة القنّاص. لم أكن أعلم أنّه هو من أنقذني، حتى أخبرتني أم سعيد بذلك يومَ زفافي. تفاجأتُ حينها وحزنتُ كثيراً، فلم أكن أعلم بحقيقة ما حصل، على الأقل كنتُ شكرته وهذا أقلّ الواجب.

- لا عليكِ يا ابنتي.. مجد لا ينتظر الشكر على أيّ عملٍ يقوم به، وهو من النوع الذي لا يتحدّث، حتى أنا لم يخبرني.

- حقاً!.. سبحان الله!.. هنيئاً لكِ يا خالتي. مجد أخلاقهُ عالية، وشابٌ يستحق كلّ الاحترام. أبلغيه شكري وامتناني، ولو جاء في وقتٍ متأخّر.. كان مجد يحدثني في طريقنا نحو المستشفى، وقد سمعتهُ جيداً

حينها، ليتأكد أنّي ما زلت على قيد الحياة. شعرتُ بالدماء تصعد إلى وجنتيّ وتحيلهما جمراً.. تمنيتُ من قلبي أن توصل أمُّ علي الكلام إلى مجد، ليعلم أنّني لم أنكر المعروف، ولم أفضّل فراساً عليه، وهو الذي خاطر بحياته من أجلي. لم أختر فراساً طمعاً بالمال والجاه، كما تناقلت الألسن بعد زواجي، وتحدثت النسوة عن رفضي لمجد؛ لأنّه شاب فقير لا يملك شيئاً.. أردتُ أن أغيّر الصورة المشوّهة لي، والتي ارتسمتْ في ذهن مجد بالتأكيد. شعرتُ براحةٍ كبيرة، همّاً كبيراً أُزيحَ عن كاهلي.

مجد

أيار٢٠١٣

انتهتْ إجازتي، وعدتُ إلى الثكنة العسكريّة. جاءت أوامر بانتقال عددٍ من العساكر إلى حلب، بسبب تأزّم الأوضاع هناك، وكنت منهم.

الطريق إلى حلب كان طويلاً متعباً. كنتُ حاضر الجسد ، وروحي وعقلي في مكانٍ آخر تحلّقان، تستحضران كلّ لحظةٍ وكلّ كلمة (أرجوك!.. ابقَ من أجلي) كانت آخر عبارةٍ قالتها لي وهي تودّعني عند باب بيتهم قبل أن أنصرف. ابتسمتُ واحمرّ وجهي خجلاً. تلك الكلمات كانت البلسم الشافي لكلّ ما شعرتُ به من ألمٍ في السابق.

أدرتُ الخاتم الفضي في يدي اليمنى، قربتهُ من شفتيّ وقبّلته.

سأشتاقُ لكِ كثيراً. حدقتُ في شاشة هاتفي الجوّال منتظراً الرد. (سأدعو الله في صلاتي أن يسلمك ويحفظك، ويردك لي سالماً).

ـ انتبهي لنفسك ولأمّي أيضاً، أمّي غدت وحيدة بعد سفر بتول وزوجها إلى العراق، والأيام المعدودة التي ترى فيها أخي علياً، وليس لها بعد الله سوانا، أنا وأنتِ يا مهجة قلبي.

في السابق أحببتُ الحياة لأجل أمّي فقط، واليوم أصبحت أحبها لأجل زينب أيضاً.

يا الله! لو أنّ معجزةً تحدث، فيعود كلّ شيءٍ كما كان. نظرتُ إلى

السماء متوسلاً: يا رب، أغث قلوبنا بنصرٍ من عندك، وأيّدنا بجنودٍ من السماء، علّ هذه الحرب تحطُّ أوزارها. لقد تعبنا كثيراً. تآكل شبابنا واستهلكتهُ الأحزان، فكأنّ الواحد منّا وهو في ريعان الصبا قد بلغ الأربعين من ثقل الهموم المتراكمة على غصنه الغضّ.

وصلنا حلب. كان مقصدنا سجن حلب المركزي. معارك ضارية كانت تدور هناك. حُوصرنا حتى كاد الجوع يفتك بنا. ألقتْ طائرات الجيش الإغاثة من طعام ودواء، لكنّها أحياناً تغير وجهتها بفعل إصابة المسلّحين للمناطيد. تناولنا أطعمةً تعاف الفئران والجرذان أكلها. جنودٌ ماتوا بسبب نقص الدواء ولا سبيل لنقلهم إلى المستشفيات، وآخرون صمدوا رغم الجوع والألم.

تحدثتُ مع أمّي ومع زينب، لكن لم أخبرهما بالوضع الكارثي الذي نعيشه. صوت زينب أراحني، كان الوجبة الروحيّة والعاطفيّة التي عوضتني عن الغربة والوحشة التي أنا فيها.

قبل أن نُحاصر بشكلٍ كامل، تم الإفراج عن عددٍ من المساجين لأسباب إنسانيّة. وبعد الحصار قضى عدد كبير منهم. من لم تتلقفه يد الموت، والجوع، ورصاص المسلّحين الذي شقق الجدران، فقد سكنتْ جسده الأوبئة والأمراض من سلٍّ وتيفوئيد وآفات معويّة. أصبحتْ إحدى الزنزانات مستشفىً ميدانياً، وتآلف السجين مع السجّان. الظروف جعلتنا عائلة واحدة، أكثر من أربعة آلاف سجين بينهم ستين امرأة، تحمّلوا معنا معاناة قاسية. بعضهم تطوّع للدفاع

عن السجن وحملوا السلاح حتى ارتقوا شهداء. تحولت ساحات السجن إلى مقابر جماعيّة.

مضتْ سنة على تحمّل المعاناة، معاناة الحصار. المعارك الدائرة في حلب عنيفة للغاية. مجموعات مسلّحة أتت من تركيا، إضافةً إلى مجموعاتٍ إسلاميّة متطرفة، والجيش الحر.

سنةٌ كاملة لم أتمكن فيها من رؤية الوجه الذي أحب، انقطعتْ الأخبار عن بصرى. قلبي يتمزّق هنا وأنا بعيد لا أدري هل الأهل بخير أم لا. انعزلنا عن العالم الخارجي، بعد صبيحة يومٍ أسود استيقظنا فيه على صوت مكبّرات الصوت: جايينكم!.. سنذبحكم جميعاً!..استسلموا لا مجال للهرب؛ لأنّنا نحاصركم من كلّ جانب!.. يا عناصر السجن سلموا أنفسكم واخرجوا إلينا!

لكن حامية السجن كانوا يردّون عليهم بكلّ بسالة: يا مسلحون!.. تعالوا إلينا أنتم وسلّموا أنفسكم.

هكذا طيلة فترة الحصار، والتي استمرّت حوالي سنة ونصف، ينادون بمكبّرات الصوت لإرعابنا وإخافتنا.

بعد يومين من التهديد الأوّل لنا، استيقظنا على صوت انفجارٍ كبيرٍ، وهجومٍ عنيفٍ على الباب الرئيس للسجن، وتمكنّا من تكبيد الإرهابيين خسائر كبيرة. عاد المسلّحون للهجوم علينا مرةً أُخرى، وتمكنّا من صد الهجوم أيضاً.

قلّتْ الذخيرة والمواد الطبيّة أكثر، كنّا نُسعف المصابين بمواد

بسيطة، ونتحمّل الأوجاع والتعب. تعاهدنا على الصمود والبقاء معاً حتى الشهادة أو النصر، وكان سلاحنا الصبر.

في كلّ يوم أستلقي على سريري منهكاً؛ لأشرب كأساً جديداً من الترقب والانتظار. العمر يمرُّ قهراً، وساعات طويلة تلو ساعات تتساقط كأوراق الخريف على عتبة الأيّام القادمة.

تُرى.. أفي ساعات السجن لحظات يتوقف أمامها الزمن إعجاباً وإجلالاً؟ كتلك التي وقفها سابقاً ليمجّد بطولة، أو معركة انتقلنا فيها خطوة، وتغنينا فيها عمراً لا يضاهيه سوى عمر التاريخ. هل سيأتي يوم يمشي فيه التاريخ على الطرقات المنسيّة؟!.. هل سيقف ولو للحظات لينصف الغرف الباردة، المظلمة، الموحشة؟! أم سيتعثر بالأرواح ويمضي دون أن يكترث للدم الذي يسري في الشرايين، ويحمل رسائل الألم، والأمل، والحب، والخوف، والحزن، والسعادة.

هل سيأتي يوم يُقال فيه للظلم: كفى؟ ويكتبُ المؤرّخون بأيدٍ بيضاء ويمسحون بصمات الدم؟ هل سَيسجَّل التاريخ بالأرقام فقط، أم ستنصَف المشاعر الإنسانيّة؟ هل ستُذكَر أيامٌ شهدتْ أحداثاً غيرتْ معالم مكان، سياسة دولة، أموراً حصلتْ في الواقع وأخرى لم تحصل؟ وتُلغى أيّام كانت ضحية أيام أخرى، فماتت مسمومة مقتولة، أبطالها أبناء الجوع والحرمان والقهر.. هل ستدوسها آلة الزمن وتمضي؟!

من لم يعش أسطورة الصمود في سجن حلب، لم يعرف قيمة الحريّة، ولم يذق طعم الحياة.

أدرتُ عينيّ الباكيتين عن السقف المظلم، لأتأمل بأذنيّ قطرات المطر التي رسمتْ خطوطاً دقيقة على الطرف الآخر من الجدار، تشبه في سيلانها خطوط الدم النازفة في مسرحٍ للموت هنا. عشرات الجرحى وجثث موتى اصطبغت دماؤهم على أغطية الأسرّة البالية والجدران في كلّ أرجاء السجن.

آه، أيّها السجن العتيق! الذي حولته المعارك إلى قلعة صمودٍ أسطورية.

تم إرسال الذخيرة إلينا بالطائرة، خرج أحد الأبطال لإحضارها ولم يعُد. تقدّم المسلّحون نحونا بالآليات الثقيلة، المحمّلة بأطنان المتفجّرات، التي ستُحيل السجن إلى مقبرة لكل من فيه، لكن بطولة الجنود حالتْ دون دخولها، ضحوا بأنفسهم وألقوا القنابل على الآليّات ولم يعودوا. عرجوا إلى السماء تاركين خلفهم ذكريات لا تُنسى. أصوات ضحكاتهم لا تزال ترنُّ في أركان المكان.

كم كنتُ أخلد للنوم متعباً يغلبني النعاس فيوقظني الجوع، وأداري الألمَ بالأمل. هكذا مضتْ الأشهر حتى جاء يومٌ استيقظ فجره على صوت آلياتٍ تقترب، وانفجارات عنيفة، ثمّ لاح لنا العلم السوريّ يرفرف من بعيد، كطائرٍ يزف البشائر.

زينب

٢٠١٥

أخيراً ابتسم القدر لي بعد شهورٍ من الأسى. تمت خطوبتنا أنا ومجد، وحددنا موعد الزواج بعد عودته. ذهب إلى حلب وذهب قلبي معه، كنت أدعو له في كلّ يوم، ولا يغمض لي جفن حتى أسمع صوته وأطمئن أنّه بخير، تبادلنا الرسائل المغلّفة بالأشواق. ثمّ فجأة، انقطعت أخباره. اشتعلتْ النيران في قلبي وقلقتُ كثيراً. مضى شهر.. اثنان.. ثلاثة.. سنة، ولا أعلم مصير مجد. كلّ ما أعرفه: أنّه محاصرٌ مع رفاقه في سجن حلب المركزي. وصلتنا أخبار عن المعارك الدائرة هناك، وعن صمود حامية السجن، لكنّني لم أكن أعرف أَ مجدٌ بخير أم لا.

ما أصعب ليل الانتظار! وما أقسى القلق الذي يسببه مصير الأحبة المجهول!

والدة مجد وضعها النفسي صعب جداً، تبكي في الليل والنهار. حاولتُ مواساتها ولم أتركها طيلة فترة غياب مجد. طال الانتظار ولم يعُد الوضع يتحمّل التأجيل أكثر. قررتُ الذهاب إلى حلب لتقصي الأخبار، لكن أهلي لم يوافقوا بسبب المعارك الدائرة هناك، وصعوبة الوصول إلى حلب. أيضاً الجماعات المسلّحة تقطع الطرقات، وتقوم بأعمال الخطف والقتل، حتّى بحق المدنيين.

ساعات عملي في المستشفى هي المواساة الوحيدة لي في فترة غياب مجد. تصاعدتِ الأعمال القتالية في المدة الأخيرة، وتعرّضنا لعدة هجمات لاستباحة بصرى، لكن شبابنا الأشاوس رغم قلّة عددهم وعدتهم كانوا يصدونها. حتى جاء شهر آذار ٢٠١٥ حين انقلبت الموازين، وتم حصار مدينة بصرى الشّام من جميع الجهات، حتى الجهة الشرقية المتنفس الوحيد لنا باتجاه السويداء، أصبحت خطرة جداً. المسلّحون ينصبون الكمائن، ويطلقون القذائف والصواريخ نحو أيِّ هدفٍ متحرّك سواء أكان سيارة عسكريّة أو مدنيّة. اشتدّ الحصار أكثر، وازدادت المعارك شراسةً. كان الهجوم على بصرى بأعداد كبيرة. تسلل المسلّحون من الحدود الأردنيّة من جنسيات مختلفة، بعضهم عرب وبعضهم الآخر أجانب.

٢١ آذار ٢٠١٥

صار إطلاق الرصاص والقنابل والصواريخ كزخات المطر. المعارك متواصلة ليل نهار. لم أعُد إلى منزلي، بقيتُ في المستشفى بسبب الأعداد الكبيرة من الضحايا. ثلاجة حفظ الموتى أصبحت ممتلئة، الجثث مكدّسة هنا وهناك، والغرف غصّت بالجرحى. أعياني التعب، بيد أنّه ليس من الممكن ترك هؤلاء والعودة إلى البيت لأخذ قسطٍ من الراحة. لم يكن حالي أسوء من حال الشبان المتمركزين في المحارس لحماية بصرى. أعداد قليلة في مواجهة سيلٍ تدفّق من كلّ الجهات.

كان يتم وضع شابين أو ثلاثة في كلّ محرس، وهو أمرٌ صعب للغاية

نظراً لكثافة النيران. الأيّام الأربعة الأخيرة لم يتوقف فيها تبادل الرصاص والقذائف، الناظر إلى سماء المدينة يظنّها جمراً ملتهباً.

تم استهداف البريد، حتى المستشفى والمستوصف. لم يقيموا حرمةً لأيّ مكان، ولم يعُد هناك شبر واحد خارج الاستهداف والقصف. طلبنا مؤازرة من الجيش لكنّها لم تصل. بعض الشبان المتواجدين في منطقة السيدة زينب هبوا لنجدتنا.

ليلة ال٢٤ من آذار، المعركة الكبرى، خطوط الهاتف والكهرباء مقطوعة. ليلٌ دامس أضاءته نيران القذائف والصواريخ.

آهٍ يا بصرى!.. يا وجعي الذي لن أنساه ما حييت.

جلستُ في إحدى زوايا المستشفى أكفكف دموعي. مناظر المصابين وأشلاء الشهداء تمزّق القلب. سقطتْ قذائف في ساحة المستشفى، ارتجّ البناء بفعل الانفجارات المتلاحقة، حاولتُ أن أتماسك، أن أكون قويّة، كنتُ بحاجةٍ لسماع صوت مجد، لم يغب طيفه عن بالي ولو لحظة. ترى كيف حاله؟!.. هل ما زال على قيد الحياة؟!.. في كلّ لحظة أتخيله بحال فأبكي، وأنا التي جربتُ مرارة الحرب ولوعة الحصار. توسلتُ إلى الله أن أراه، وإذا كان قدري الشهادة فأنا راضية، لكن رجائي الوحيد أن أراه وأخبره عن مقدار الحب الذي أحمله له في قلبي، وبعدها ليكن ما يكون. خفتُ أن أرحل عن هذه الدنيا دون أن أكحّل ناظريّ بوجهه الملائكي، دون أن أقطع له عهداً بالوفاء مدى الحياة، وماذا لو استُشهد هو قبلي قبل أن أقطع له هذا الوعد. ارتعد جسدي لمجرد الفكرة،

أمسكتُ هاتفي الجوّال، كتبتُ رسالةً جديدة أضيفت إلى عشرات الرسائل التي كنت أرسلها له كلّ يوم وتبقى دون جواب. وكلّما رنَّ هاتفي يخفق قلبي وأسرع بلهفة؛ لعلّ إحدى الرسائل والاتصالات تبرّد نيران قلبي.

وسرعان ما رنّ هاتفي. فتحته بسرعة، ولم أكد أتحدث حتى أتاني صوت أخي يصرخ. عفيف ما بك!.. هوّن عليك نحن بخير!

ـ عن أيّ خير تتحدثين؟! هل ما زلتِ في المستشفى؟!

ـ نعم.. الوضع تحت السيطرة، ورجالها صامدون.

كان عفيف متوتراً جداً، شدة انفعاله نبهتني إلى هول المصيبة التي وقعت.

ـ زينب! اخرجي فوراً من المستشفى! المسلحون دخلوا المدينة!

ـ كيف عرفت وأنت في السعودية؟!

ـ أختاه!.. نحن نشاهدهم في بثٍّ مباشرٍ على شاشة التلفاز! إنّهم ينتشرون في الحارات الشرقية والغربية ويكبّرون في المساجد! اخرجوا من بصرى بأسرع وقت ممكن.

ـ هل أخبرتَ أهلي؟!

ـ اتصلتُ بالجميع، دخل إلى محافظة درعا مئات المسلّحين! إذا بقيتم ستحدث مجزرة! ستقتلون وتُستباح أعراضكم! اخرجوا!.. اخرجوا!

انعقد لساني واحترتُ ماذا أفعل. الشبان كذلك في المحارس مصدومون. بينما نحارب بالأسلحة الخفيفة من بنادق وقاذفات هاون

وقنابل؛ كان المسلحون ينصبون الراجمات، ويمطروننا بالصواريخ. ثمّ حدثتْ الفاجعة!.. اقتحموا المدينة بالدبابات والآليات التي سلبوها من نقاط الجيش التي سيطروا عليها. وفي غياب المؤازرة كنّا أمام خيارين: المواجهة وهي الأمر المستحيل، والذي يعني الموت المحتّم، ومجزرة بحق الأهالي، أو الانسحاب وهو الخيار المنطقي والأسلم ريثما يتمّ رصُّ الصفوف من جديد، وإعادة الحق لأصحابه. وبالفعل بدأت رحلة الانسحاب، و يا لتعاسة المشهد.. رتلٌ من السيارات تحمل أرواحاً بائسة، تناثر الحزن والأسى فوقها. البعض حالفهُ الحظ فوجد بضع سنتيمترات في السيارات المكتظة، وآخرون خرجوا مشياً على الأقدام، في مشهدٍ يندى له جبين كلّ صاحب ضميرٍ حي. رجل عاد إلى الحي الغربي لإخراج عائلة عالقة هناك، بينما انتشر المسلحون في هذا الحي بشكلٍ كبير، أمسكوه حيّاً وأعدموه ثم قطعوا رأسه، وخرجت عائلته من بصرى دونه يبكون. بعض نقاط الحراسة لم تصلهم أخبار الانسحاب إلا بعد فوات الأوان ودخول المسلحين إلى المدينة. فجأةً سمعوا التكبيرات في المساجد فانتبهوا. جماعة خرجوا ليلاً من بين الحشود المسلّحة، لفوا وجوههم لإخفاء ملامحهم، وهتفوا مع المسلّحين، عيونهم تراقب المشهد بحذر، تناولوا من الحلوى التي وُزِعتْ في الشوارع، وقلوبهم يعتصرها الحزن، لكن ليس باليد حيلة! دماؤهم كادتْ تجف في عروقهم، هكذا حتى تمكنوا من الفرار، ظلمة الليل والأعداد الكبيرة التي دخلتْ بصرى جعلتْ التعرّف عليهم أمراً صعباً.

آخر من انسحب من بصرى كان جماعة القلعة والمستشفى. أمّا جماعة القلعة، فقد خرجوا أيضاً من بين المسلّحين، وكانت نجاتهم أعجوبة، باستثناء شاب قرر العودة إلى منزله لأمرٍ ما قبل أن ينسحب، فوقع بأيدي المسلّحين حيث قتلوه ومثّلوا بجثته، وسحبوه في شوارع المدينة دون رحمة أو شفقة.. رحمه الله!

أسرعتُ أُعلم الأطبّاء والممرضين بضرورة الرحيل، وكانت أصوت التكبيرات تقترب أكثر فأكثر. حملنا بعض الجرحى معنا، والبعض بقي في المستشفى. أحد المصابين كانت قد بُترت ساقه، رفض الخروج معنا، وقال: دعوني أموت هنا وانجوا بأنفسكم، أنتم أحقّ منّي بالحياة. مواقف كثيرة لا تُنسى، وكلّ موقف فيه من المشاعر والأحاسيس ما تعجز عن وصفه الكلمات.

انتبهتُ لإحدى الممرضات تتحدّث في الخفاء مع شخص ما، تخبره عمّا يجري في المستشفى. هرعتُ إليها وتشاجرت معها. أيتها الخائنة! أكلتي من زادنا وقدمنا لكِ الحماية، وكنّا بمثابة أهلكِ! جاء صوت مدير المستشفى: اتركيها يا زينب وأسرعي!

لكنّها تنقل أخبارنا للمسلّحين!

هؤلاء أقاربها، من الصعب عليها أن تتخلى عنهم.. اتركيها وأسرعي!

ركبنا السيارة وخرجنا. كانت بصرى تلفظ أنفاسها الأخيرة. شاهدتُ أطفالاً ونساءً يصرخون ويبكون. إحدى السيارات توجهت

نحو المقبرة لدفن بعض الشهداء، وأخرى تحمل عائلاتهم تسير في طريق الخروج. أحد الأطفال يصرخ وينادي: أبي! أريدُ أبي! كان يريد إلقاء نفسه من السيارة، والنسوة من حوله يحاولن منعه.

يا الله! ما أصعب تلك اللحظات!.. بكيتُ من كل قلبي، ووضعتُ يدي على فمي لأكتم شهقاتي. على مفترق القدر، نجا هؤلاء. في حين اتجهت أشلاء الآباء إلى المقبرة، وبقيتْ هناك مع كلّ شيء جميل بقي في بصرى الحبيبة.

راقبتُ السماء من بعيد.. سُحب الدخان الأسود تغطيها بكثافة. ما أوحش هذا المنظر!.. لم أرَ بصرى كئيبةً هكذا من قبل. يا وجعي الأبدي وداعاً!.. وداعاً!

مجد

وصلت المؤازرة أخيراً، بعد حصارٍ طويل كاد يفتك بنا. فرحتنا لا توصف بالانتصار. ما أحلى الحريّة!.. وما أجمل سماء الوطن!

عانقنا أبطال الجيش السوري، الذين خاضوا معارك ضارية حتى وصلوا إلينا. أسرعت إلى أحد الجنود أطلب هاتفه، واتصلت فوراً بأمّي التي أجهشت بالبكاء فور سماع صوتي. اتصلت بزينب وهي الأخرى غرقتْ في موجةٍ من البكاء. زينب أنا بخير! اشتقت لكِ كثيراً!.. أنا قادمٌ إليكِ.

ارتميتُ أرضاً، أقبّل التراب وأبكي. التف حولي رفاق السلاح، الذين عشتُ معهم أجمل اللحظات وأصعبها. شبان من مختلف المحافظات السوريّة، ومن مختلف الطوائف والأديان، كانوا حولي كسورٍ جميل. نظرتُ إلى عيونهم التي تطفح بالمحبة وابتسمتُ: مبارك لنا جميعاً هذا النصر الكبير.

مع ساعات الفجر الأولى كنتُ في سيارةٍ متجهةٍ نحو الجنوب، أشواقي تسبقني لرؤية بصرى التي اشتقتُ لها كثيراً. اشتقتُ لكلّ حارة، وكلّ شارع، شغلتُ هاتفي الجوّال، وبدأ سيل الرسائل يتدفّق، بعد فترة انقطاعٍ طويلة. أمضيتُ الطريق أقرأ رسائل زينب، التي جعلتْ قلبي أشبه بطائرٍ جامح يرفرف بين قضبان قفص لم يعُد يطيق المكوث فيه ليصل إليها.

نظرتُ باتجاه الأضواء التي تومئ للسيارة كي تتوقف.

رأيت من بعيد مجموعة أشخاص، ربما هي نقطة تفتيش تابعة للجيش.

اقتربنا أكثر، لكن كان ظنّي في غير محلّه.

حسام

جاءت سيارة من بعيد تحمل عدداً من الأسرى. كانت قد أوكلتْ لي مهمّة حراسة السجن.

ـ استلم، عدد من الكفرة.

- من هؤلاء؟

- جنود النظام

كانت السياط تنهال عليهم، ثم يُلقى بهم في السجن، وجوههم ملطخة بالتراب الممزوج بالدماء وثيابهم ممزّقة.

دونتُ أسماءهم على دفترٍ خاص بالسجناء، رفعت رأسي لأرى وجه الجندي الواقف أمامي، كانت إحدى عينيه متورّمة والدماء تسيل من أنفه وفمه، شعره طويل أشعث وجسده نحيلٌ جداً. تأملته للحظات، ثم استوقفتني نظرته. بدا جسده غريباً عنّي، لكنّ عينيه مألوفتان، تلك النظرة أعرفها، تُرى أين رأيته يا ترى؟!

- ما اسمك؟

ظلّ صامتاً يحدّق بي. ارتسمتْ ابتسامة على شفتيه وقال: هذا أنا، صديق الطفولة.

- مجد!.. مستحيل!

سقط الدفتر والقلم من يدي. انتصبتُ واقفاً لا أدري ما أفعل.

كدتُ أقترب منه وأحتضنه، لولا انتباهي للمكان الذي أنا فيه. تأملته بحزن، يا للبائس المسكين!...ما الذي حوّل الشاب الوسيم إلى شبح؟!.. ما الذي أذاب وجنتيه الجميلتين فصارتا عظاماً ناتئة. وقفتُ عاجزاً لا أستطيع أن أفعل أيَّ شيء. تركتّ لعينيّ مهمة البوح بمكنونات قلبي. هو أيضاً كان يحدثني بعينيه. سالتْ دموعه بغزارة. أنا أيضاً لم أعُد أقوى على التظاهر برباطة الجأش. انسحبتُ بعيداً متذرعاً بحاجة أقضيها وأعود، وأوكلتُ مهمة تسجيل الأسماء لزميلي في الحراسة.

تبّاً للأقدار والصدف. وجود مجد زاد من حيرتي وألمي وضياعي. اعتقدتُ أنّني نسيته وتخلّيت عن صداقته، لكن ما إن وقع نظري عليه، حتى تدفقتْ المشاعر رغماً عنّي ولم أستطع كبحها.

كنت واهماً عندما فكرت أنّني في اختياري الابتعاد عنه، سرتُ في طريقٍ لا يجمعني به من جديد.

سخر القدر منّي وبقسوة، فاقتحم حياتي بطيفه، وذكرياتنا معاً. لكن أن نجتمع هنا وفي هذه الظروف، فهذا ما لم أكن أتخيّل حدوثه أبداً.. أبداً.

لم أتمكن من النوم. مجد همٌّ جديد أُضيف إلى همّي. سيصدر حكم الإعدام به وبرفاقه. هل سأتركه للموت هكذا بكل بساطة؟! لا أستطيع.

مجد إنسانٌ بكلّ معنى الكلمة. أنا أعرفه جيداً. إنسانٌ طيب القلب

لا يعرف الحقد ولا الكراهية. له مواقف لا أنساها، إحداها مشاركته في إسعاف المصابين في بداية الأحداث. على الرغم من خلافي معه بشأن الانتماء، لكنّه على الأقل أفضل من هؤلاء المجرمين، الذين ورطتُ نفسي في الحرب معهم. مجد لا يستحق الموت على أيديهم الملطّخة بدماء الأبرياء، لا يستحق الموت!

ذرعتُ الغرفة جيئةً وذهاباً عشرات المرّات، أفكّر: ما السبيل إلى النجاة؟! ماذا أفعل؟! ليس أمامي سوى هذه الليلة، وعليّ اتخاذ قرار، وحسم أمري قبل فوات الأوان.

أخذتُ بندقيتي، وضعتُ سكيناً على جانبي الأيسر، وتوجهت نحو السجن.

مجد

كان لقائي حساماً صدفةً لم أتوقع حدوثها. لم أنسَ حساماً أبداً. كان حاضراً في ذهني دائماً رغم توجهاتنا المختلفة، وكانت المفاجأة حين أتى إلى السجن لتحريري.

اقتربت من ثقب الباب مصغياً لحديثه مع حارس السجن.

- حسام !.. ماذا تفعل هنا؟

- لا أستطيع النوم، شربت الكثير من القهوة، اذهب لترتاح، سأمكث مكانك حتى أشعر بالنعاس.

- بارك الله بك يا أخي!

بعد حوالي ربع ساعة، كان يفتح الباب بيدين مرتجفتين وسط ذهول الأسرى.

هيّا أسرعوا! اتبعوني بحذر ولا تصدروا صوتاً! هيّا يا مجد!.. أسرع!

لم ألتفت ورائي، تسللنا بحذرٍ شديدٍ خلف السجن، لكن أحد الحراس انتبه لوجود حركة فنادى: من هناك؟ أجابه حسام بعد أن طلب منّا أن ننبطح أرضاً: هذا أنا حسام، كنتُ أتمشى قليلاً، لا أشعر بالنعاس. مشى حسام باتجاهه، ولم نعُد نراه. تجمّدت الدماء في عروقنا، احترنا ماذا نفعل دون حسام. سمعنا صوت خطوات تقترب منّا، لم

نأتِ بأيّ حركة، كانت أجسامنا متصلّبة ننتظر لنعرف من الشخص القادم إلينا. حمداً لله! رجع حسام، يحمل سكيناً ملطّخةً بالدماء. هيّا أسرعوا! كان لا بد من التخلص منه، وإلا اكتشف أمرنا. ابتعدنا عدّة أمتار زحفاً، ثم قال لنا: اركضوا بقدر ما تستطيعون، هذا طريق يوصلنا إلى أقرب قرية. لا تتوقفوا، ليس لدينا وقتٌ كافٍ للاستراحة. كان حسام يعطينا التعليمات وسط أنفاسه المتسارعة.

انعقد لساني تحت تأثير الصدمة؛ فلم أكن أتخيّل أن يطلع علينا يوم جديد. ركضنا لساعات توقفنا خلالها لحظاتٍ معدودة، حتّى رأينا أضواء القرية التي حكى عنها حسام.

جلسنا نلتقط أنفاسنا بضع دقائق. كان حسام يحمل قارورة ماء، سقانا جميعاً، كنّا معه ستّة أشخاص، ثم قال: هيّا لنسرع !..قد يُفتضح أمرنا ويلحقون بنا!

واصلنا السير بسرعة. صوت سيارات تقترب. أسرعنا أكثر، لكنّ السيارات اقتربتْ وأوشكنا أن نغدو تحت الأضواء، أُطلقتْ النيران صوبنا، حاولنا أن نتوارى خلف الصخور، السيارات تقترب أكثر، وصوتٌ ينادي: سلموا أنفسكم كي لا تموتوا. مرتْ إحدى السيارات بجانبنا، وابتعدتْ قليلاً، أحد الأسرى خرج من وراء الصخور خائفاً وركض باتجاه السيارة، انتبه له الدواعش وأطلقوا عليه الرصاص، فسقط ميتاً. تمتم حسام بغضب: تباً له لقد فضح أمرنا، لم يعُد هناك فائدة من الاختباء.

لقّمَ حسام البندقية، وتبادل إطلاق النار معهم، سقط اثنان منهم، بينما استُشهد جميع الأسرى وبقيتُ أنا وحسام. كان فتات الصخر المتكسر يتطاير حولنا. أحدهم ينادي: سلّم نفسك يا حسام! الأمير سيعفو عنك إذا سلّمتَ نفسك. تفقّد حسام مخزن البندقيّة، كان لا يزال فيه رصاصتان فقط. قال لي: مجد، حاول أن تتسلل خلف الصخور واهرب، سأحاول التغطية حتى تبتعد. فأجبته: لا سأبقى بجانبك. نظر إلي متوسلاً وقال: أرجوك! لا يا حسام لن أذهب دونك. حسناً، أخفض رأسك وانتبه جيداً سأسير خلفك. مشينا بحذرٍ شديد وقد أحنينا ظهورنا. أطلق حسام رصاصةً، كي يضمن عدم اقتراب أحد، وبقي في حوزتنا رصاصة واحدة. قال لي حسام هامساً: مجد، لا أريد أن أقع في الأسر.. الموت أفضل بالنسبة لي. شعرتُ برصاصةٍ تخترق ساقي، ولم أعُد أقوى على السير، انتبه حسام وتوقف ينظر إليّ. همستُ له: اهرب يا حسام!.. قد تتمكّن من الوصول إلى القريّة!.. أعطني سلاحك!.. سأحاول إلهاءهم!

لكن حسام جثى على ركبتيه بجانبي باكياً وقال: لا أريد !.. سأبقى معك.

لا يا حسام!.. أسرع قبل أن يصلوا!

لم يتحرك حسام. حاولتُ أن أقف أجرّ قدمي بصعوبة.. هيّا أسرع!

أطلقَ حسام الرصاصة الأخيرة وقتل داعشياً كان يقترب منّا.

اهرب يا حسام! أرجوك!

فات الأوان يا مجد!.. فات الأوان!

لم يعُد بحوزتنا سلاح سوى السكين. هجم حسام باتجاههم كالصقر الجامح وطعن شخصاً، لكن سرعان ما تكالبوا عليه، فوقعنا في الأسر.

اقتادونا إلى الأمير، الذي صفع حساماً ونعته بالخائن الكافر، ثم أصدر حكم الإعدام بحقنا. اقتادونا إلى الساحة العامّة. خالد يقف هناك أيضاً يحدق بي بغضب.

أيدينا مقيدة خلف ظهورنا، أجلسونا متجاورين على ركبنا، مدَّ حسام يده اليسرى نحو يدي اليمنى فتلامست أصابعنا. (سامحني يا أخي وحبيبي!.. سامحني!.. سنغادر الدنيا معاً كما جئنا إليها معاً).

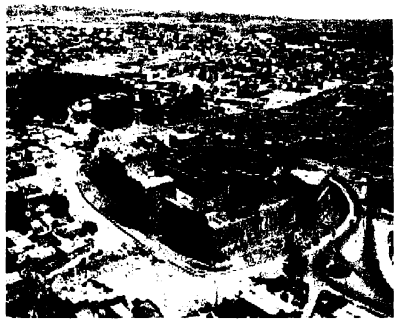
نظرتُ في عينيه الغارقتين بالدموع وبكيت، أعادتني تلك اللحظة إلى الطفولة، تذكّرتُ حين كنّا نجلس تحت شجرة التوت الكبيرة نلعب ونضحك. لو بالإمكان إعادة الزمن إلى الوراء ومحو أخطاء الماضي!.. لو أنّنا نبقى صغاراً ننعم بالبراءة والمحبة!.. لكن لا بد لكل بدايةٍ من نهاية.

حسام!.. أتذكر صورتنا؟

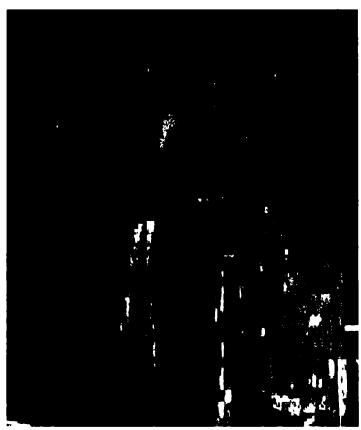
الفأر والمخلوق الفضائي، ضحك حسام، وضحكتُ وسط بكائي. جالت روحي في الحارة القديمة حين ضعنا قرب باب الهوا. تذكّرتُ الوادي والمقعد الأخير، تذكرتُ حضن أمّي ووجه زينب وقبر أبي. قربتُ رأسي من رأس حسام. كان يبكي ويحاول أن يتحدث، لكنّ موجة البكاء منعته من الكلام. عضضتُ على شفتي

السفلى كإشارةٍ له بأن يهدأ. ابتسمتُ له وقبّلتُ جبينه بشوق السنوات الماضية التي فرقتنا. لم أسمع صوت الرصاص الذي أطلق نحونا.. شعرتُ بخفةٍ لا مثيل لها.. أخذت رسومُ الأشياء تضمحل شيئاً فشيئاً ولم أعُد أشعر.. آخر شيء رأيته: دماؤنا أنا وحسام ، والتي سارت في خطين متجاورين التقيا وامتزجا. أغمضتُ عينيّ لأنعم بالسكينة، تاركاً ورائي خطّ الدم ليكمل الحكاية.

صور مدينة بصرى الشّام



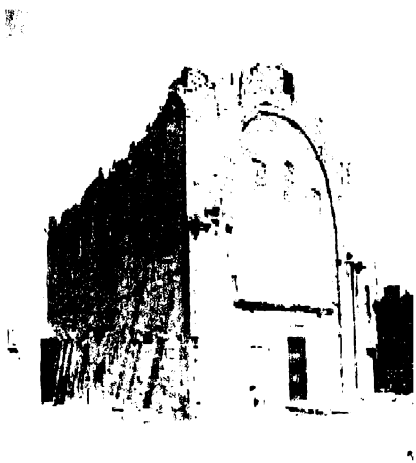
مدينة بصرى الشّام



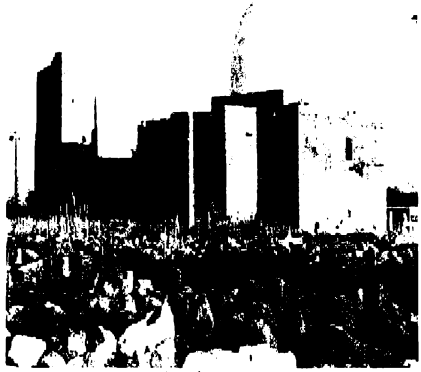
سرير بنت الملك



باب الهوا



دير الراهب بحيرى



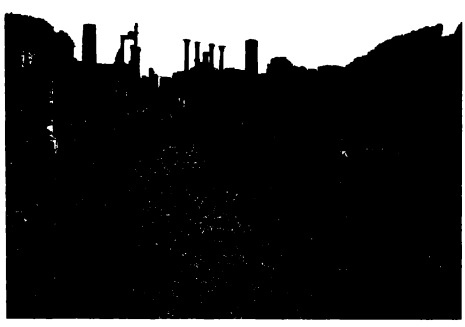
مسجد مبرك الناقة



بركة الحاج



فندق بصرى الشّام



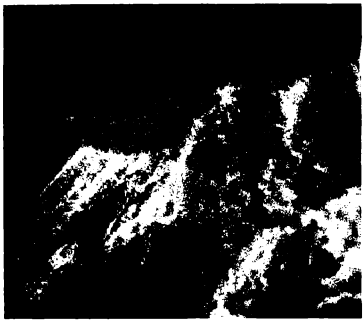
الحي القديم



المليحي



المسرح





الوادي الزيدي

تنويه:

لا يوجد صور للمقبرة؛ لأن المسلّحين جرفوا القبور وسوّيت بالأرض، لتصبح ملعباً لكرة القدم فيما بعد.

أيضاً لا يوجد صور لجامع الإمام الحسين عليه السلام الذي تم تغيير اسمه.

تمّ هدم الكثير من المنازل التي هُجِّر أصحابها؛ من أجل طمس هوية المدينة وإضاعة حقوق أهلها.

نتاجات المؤسسة

١ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج١.

٢ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٢.

٣ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٥.

٤ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٦.

٥ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٧.

٦ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٨.

٧ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٩.

٨ ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج١٠.

٩ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج١.

١٠ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٢.

١١ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٣.

١٢ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٤.

١٣ ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٧.

١٤ ـ حسن الخلق، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٥ ـ الصدق سر السعادة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٦ ـ الكذب مفتاح الخبائث، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٧ ـ الشكر حصن النعم، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٨ ـ الإنابة إلى الله، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٩ ـ العلاقات غير المشروعة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٠ ـ حقوق الوالدين بين الحفظ والتضييع، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢١ ـ الحياة الدنيا محطة في مسيرة الإنسان، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٢ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج١.

٢٣ ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج٢.

٢٤ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج٣.

٢٥ـ مبادئ الأخلاق في القرآن.

٢٦ـ الأخلاق الإسلامية .

٢٧ ـ أسس الأخلاق الإسلامية ومفاهيمها.

٢٨ـ المعجم الأخلاقي.

٢٩ ـ فقه الأخلاق، (مدخل إلى علم الأخلاق الاستنباطي والاجتهادي).

٣٠ ـ بحوث ملتقى الرواية الأول (تأليف مجموعة من الباحثين).

٣١ـ رسائل من غزة (مجموعة قصص قصيرة).

٣٢ـ بيوت العيوق (رواية).

٣٣ـ سحب القداسة (رواية).

٣٤ـ قرة عين (رواية).

٣٥ـ خير المتاع (رواية).

٣٦ـ مسبحة أمي (رواية).

٣٧ـ ترنيمة طائر الجنة (رواية).

٣٨ـ الرمق الأخير (رواية).

٣٩ ـ أزهار السنط (رواية).

٤٠ ـ القبر ٣٠٦ (رواية).